

## موقف العماد الأصفهاني من حروب المسلمين والفرنج «من خلال شعره»

د. حلمي ابراهيم عبدالفتاح الكيلاني\*  
جامعة مؤتة

### ABSTRACT

This paper aims at studying El-Emad El-Asphahani's attitude artistically and objectively towards Muslims-Europeans (Franks) wars as presented in his poetry, which accompanied Islamic holy war (*Jihad*) led by Noor El-Din Zinky and Salahadin El-Ayoubi. El-Emad's attitude was very clear as he employed his inspired talent as a motive to encourage Muslim-leaders as well as soldiers. Moreover, El-Emad's inspired word was a means for building up the moral to confront the invaders and return the occupied territories, as well as a means for strength and unity.

Therefore, the importance of this paper lies in the assumption that El-Emad was one of the most prominent poets who lived during the Crusades wars, particularly in the stages of preparation and liberation. Poets of that period portrayed the impact of the wars upon themselves and upon their contemporaries. Furthermore, they presented their hopes and aspirations for diminishing the foreign existence as represented in the Europeans (Franks). Finally, El-Emad's poetry had a special purpose in its historical and literary study of the sixth Hijri century.

### ملخص

يتجه هذا البحث إلى دراسة موقف العماد الأصفهاني من حروب المسلمين والفرنج من خلال شعره الذي واكب حركة الجهاد الإسلامي بقيادة كل من نور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي من الناحيتين الموضوعية والفنية، إذ كان العماد صاحب موقف بين من تلك الحروب. لأنه اتخذ من الكلمة المعبرة الموجية سلاحاً يُشعل نيران الحماسة في نفوس القادة والمقاتلين من المسلمين، ووسيلة لاستثارة واستنهاض الهمم لمواجهة الغزاة واستعادة البلاد المقتضية من أيديهم، كما كان داعية إلى الوحدة والقوة معاً.

ولذا، فإن أهمية هذا البحث تكمن في أن العماد كان من أبرز الشعراء الذين واكبوا الأحداث التي جرت إبان الحروب الصليبية، وخاصة في مرحلتي الإعداد والتحرير، وصوّروا أصداءها في نفوسهم من ناحية، ونفوس أبناء عصرهم من ناحية أخرى، وعكسوا تطلعاتهم وآمالهم في إزالة الوجود الأجنبي المتمثل بالفرنج، فكان لشعره الحربي قيمة خاصة في دراسة القرن السادس الهجري من الناحيتين التاريخية والأدبية.

وقد اتُخذ البحث من ديوان العماد أساساً له، إضافة إلى المراجع والمصادر التي استعان بها، لينهض مستوفياً كافة مقوماته.

\* أستاذ مساعد/ قسم اللغة العربية وآدابها/ كلية الآداب/ جامعة مؤتة.

## المقدمة:

واجه المشرق الإسلامي في أواخر القرن الخامس الهجري محنة عذت من أخطر المحن التي واجهها في صراعه مع أعدائه، إذ تعرّض لهجمة صليبية استيطانية زحفت إليه مدعومة بطاقات أوروبا المادية والعسكرية، مستغلة أوضاع الدولة الإسلامية التي كانت مجزأة إلى دويلات صغيرة، وقوى متنازعة من أجل السيادة والسلطان والعدو يطرق أبوابها ويتربّص بها.

ومن المؤلم حقاً، أن التمزّق والنزاع الذي عاشته الدولة الإسلامية آنذاك قد تزامن مع العدوان الصليبي الذي تمكّن من السيطرة على فلسطين وأجزاء أخرى من بلاد الشام، وإقامة كيان كان يهدد عقيدة المسلمين وأرضهم مثلما يهددها الكيان الصهيوني الآن.

وقد عانى المسلمون من وجود الغزاة من الفرنج على أرضهم أيما معاناة، فتصدّوا لهم منذ أن وطئت أقدامهم على أرض الإسلام، إلا أنهم لم يحققوا في حربهم أية مكاسب لتفرّق كلمتهم من ناحية، وضعف روحهم المعنوية من ناحية أخرى، إلى أن تزعم حركة الجهاد الإسلامي ضدهم كلّ من عماد الدين زنكي، وابنه نور الدين محمود الذي عمل على توحيد القوى الإسلامية في مصر والشام، واستطاع أن ينتزع من أيديهم بعض المدن المغتصبة، ثم صلاح الدين الأيوبي الذي سار على نهج أستاذه نور الدين، فتوجّ معاركه مع الغزاة بهزيمتهم بحطين وتحرير بيت المقدس من أيديهم سنة (٥٨٣ هـ).

وقد قدّر للعماد الأصفهاني بحكم صلته بنور الدين وصلاح الدين أن يشهد معها معظم الوقائع الحربية التي خاضها مع الغزاة<sup>(١)</sup>، فكان كما يصفه أبو شامة فارس الشعراء الفحول في وصف المعارك، ونعت القواد الشجعان<sup>(٢)</sup>، إذ كان صاحب موقف بين من المعارك والحروب الدائرة بين المسلمين والفرنج، فواكب أحداثها، وأحداث عصره التي جرت إبان الحروب، متّخذاً من الكلمة المعبرة الموحية أداة لمواجهة الفرنج، وسلاحاً يشعل نيران الحماسة في صدور القادة والمقاتلين من المسلمين مهوئاً عليهم الموت والتضحية في سبيل الله وإعزاز دينه، وفي سبيل استعادة الأراضي المغتصبة من أيدي الفرنج، وخاصة بيت المقدس. وذلك ما سأحدث عنه في الصفحات اللاحقة من هذا البحث.

(١) أنظر: المقدسي (أبو شامة عبد الرحمن ت ٦٦٥/١٢٦٦ م) الروضتين في أخبار الدولتين ٢ م، (ط) دار الجليل، بيروت، ١٩٧٤ م، ج ١/٢٠٧-٢٠٨، ٢٧١-٢٧٢، ج ٢/١٠١.

(٢) أنظر: المصدر نفسه، ٩٤/١.

## أولاً - الموضوع الشعري:

### ١ - الدعوة إلى الوحدة الإسلامية:

في ظل الأوضاع السياسية التي عاشها المسلمون في مشرق الدولة الإسلامية، وما نشأ عنها من تمزق وضعف، أدرك العماد أن مشكلة الأمة الإسلامية الرئيسة تكمن في تفرق كلمتها، واختلاف أهوائها، لتعدد حكامها المحليين المتنازعين على السلطة والعدو يطرق أبوابها ويترصد بهم. ولذا فإن العماد في قصائده التي رفعها إلى حكام عصره الذين تزعّموا حركة الجهاد الإسلامي ضدّ الفرنج، كان يدعوهم إلى الاستمرار في تجميع صفوف الأمة، وتوحيد كلمتها تحت راية واحدة وقيادة واحدة تمكنها من الوقوف في وجه غزاتها الطامعين بها، وذلك إيماناً منه بأنّ القوة الحقيقية للإسلام والمسلمين، تكمن في وحدة الصف، ونبذ كل عوامل الفرقة والضعف حتى يعملوا على بناء جبهتهم الداخلية. ويستعيدوا حقوقهم المغتصبة.

وقد عبّر العماد عن إيمانه بوحدة الصف من أجل استعادة الأراضي المغتصبة من أيدي الغزاة في تهنئته التي رفعها إلى نور الدين زنكي حينما فتح منبج<sup>(٣)</sup>، وانتزعها من حاكمها المحلي الأمير غازي ابن حسان، وضمها إلى طاعته سنة (٥٦٣ هـ)، وذلك إذ يقول<sup>(٤)</sup>:

بُشِّرِ الْمَمَالِكَ فَتَحَ قَلْعَةَ مَنْبِجٍ	فَلْيَهْنِ هَذَا النَّصْرُ كُلَّ مُتَوَجِّحٍ
أَعْطَيْتَ هَذَا الْفَتْحَ مِفْتَاحاً بِهِ	فِي الْمُلْكِ يَفْتَحُ كُلَّ بَابٍ مُرْتَجٍ
وَإِنِّي يُبَشِّرُ بِالْفَتْوحِ وَرَاءَهُ	فَانْهَضْ إِلَيْهَا بِالْجُيُوشِ وَعَرَّجِ
أَبْشُرْ فَبَيْتِ الْقُدْسِ يَتْلُو مَنْبِجاً	وَلَنْبِجٍ لِسِوَاهُ كَالْأَنْغُودِجِ

وحين هنا أسد الدين شيركوه بوزارة مصر للعاضد سنة (٥٦٤ هـ). وذلك إذ يقول<sup>(٥)</sup>:

فَتَحَتْ مِصْرَ وَأَرْجُو أَنْ تَصِيرَ بِهَا	مُيسِراً فَتَحَ بَيْتَ الْقُدْسِ عَنْ كَثْبٍ
قَدْ أَمَكَنْتَ أَسَدُ الدِّينِ الْفَرَيْسَةَ مِنْ	فَتَحَ الْبِلَادِ فَبَادِرَ دُونِهَا وَثَبٍ

(٣) منبج: مدينة كبيرة قرب حلب، تبعد عنها عشرة فراسخ. أنظر: الحموي (ياقوت بن عبد الله ت ١٢٢٨/٦٢٦ م)، معجم البلدان، ٥٥، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (ط ١) ١٩٧٩ م، ج ٢٠٦.

(٤) الأصفهاني (عماد الدين الكاتب ت ٥٩٧/١٢٠٠ م) ديوان عماد الدين الأصفهاني، تحقيق ناظم رشيد، كلية الآداب، جامعة الموصل، (ط ١)، ١٩٨٣ م، ص ١٠٢.

(٥) المصدر نفسه، ص ٨٠، وانظر أيضا ص ٣٧٨.

ومما تقدم، نرى أن العماد يعدّ الوحدة الإسلامية الكاملة التي تربط أنحاء العالم الإسلامي السبيل الفعّال لدحر الغزاة واستنقاذ البلاد المغتصبة من أيديهم، وخاصة بعد أن وقفت مصر بكامل طاقاتها الماديّة والعسكريّة إلى جانب شقيقتها الشام وأصبحتا جبهة واحدة في مواجهة الفرنج.

ولذا فإنّ العماد كان يطرب أيّما طرب لأية مدينة إسلامية تتخلص من قيادتها المحلية المتخاذلة، وتنضم إلى حركة الجهاد الإسلامي. فحين تحقق حلم المسلمين بزوال الدولة الفاطمية سنة (٥٦٧ هـ) عبّر عن فرحته بقوله<sup>(٦)</sup>:

وانطفأت جمرَةُ الغُواةِ وقد	بأَح من الشُّركِ كُلِّ ما اضطرَّما
وصارَ شَمْلُ الصُّلاحِ مُلتبِهاً	بها وعَقْدُ السِّدادِ مُنتظِما
واهترَّ عَظْفُ الإسلامِ مِنْ جَذلٍ	وافترَّ ثَغَرُ الإيمانِ وابتنَسَما
واستبشِرتْ أوجُهُ الهُدَى فَرَحاً	فليَقْرَعَ الكُفْرُ سِنَّهُ نَدَما
عادَ حريمُ الأعداءِ مُتتهكاً الـ	حَمى وفيءِ الطُّغاةِ مُقتَسَما

ومن هنا كان العماد يربط ما بين انضمام المدن الإسلامية تحت قيادة واحدة، وبين هزيمة الفرنج المؤكدة، واستعادة المدن الإسلامية من أيديهم. وهذا واضح في تهنته التي رفعها إلى السلطان صلاح الدين حينما هزم الخارجين على الوحدة الإسلامية من عسكري حلب والموصل عندما اجتماعاً على مواجهته بتل السلطان<sup>(٧)</sup>. وذلك على نحو ما نرى في قوله<sup>(٨)</sup>:

قد كان عَزْمُكَ لئِلَهِ مُصَمَّما      فيهم فلاحَ كما رأيت فلاحُهُ  
وكأنَّني بالسَّاحِلِ الأَقصى وقد      ساحتَ يَبَحْرُدمِ الفرنجِ سَاحُهُ

ومن أجل ذلك، حمل العماد حملة عنيفة على الحكام المحليين من المسلمين الذين رفضوا الانضمام إلى الصف الإسلامي، وعدّهم من أسباب تأخر النصر على الفرنج، وذلك لأنهم هدرُوا طاقات الأمة، وعطلوها عن مواجهة غزاتها بتخاذلهم وتقاعسهم الذي أطمع الفرنج في ديار الإسلام، وهذا واضح في قوله إثر قتل شاور وزير مصر مخاطباً أسد الدين شيركوه<sup>(٩)</sup>:

(٦) المصدر نفسه، ص ٣٧٦-٣٧٧.

(٧) تل السلطان: موضع قريب من حلب، كانت به وقعة بين صلاح الدين وسيف الدين غازي صاحب الموصل سنة (٥٧١ هـ). انظر: معجم البلدان: ٤٢/٢.

(٨) ديوان العماد، ص ١١١.

(٩) المصدر نفسه، ص ٨٠-٨١. وأما شاور، فهو أبو شجاع شاور بن مجير بن نزار السعدي وزير الخليفة الفاطمي

من شرِّ شاورَ أنقذت العبادَ فكُم      وكم قضيت لحزبِ الله من أرب  
هو الذي أطمع الإفرنجَ في بلدِ الـ      إسلام حتى سَعوا للقُصْدِ والطلبِ

وفي قوله أيضا في قصيدة أخرى رفعها إلى السلطان صلاح الدين حينما هزم عسكري حلب والموصل سنة (٥٧١ هـ). وذلك إذ يقول<sup>(١٠)</sup>:

فأعبرُ إلى القومِ الفُراتَ ليشربوا الـ      مَوْتَ الأجاجِ فقد طما طفأحه  
لتفكُ من أيديهم رهنُ الرُّها      عَجلا ويُدرِك ليلها إصباحه  
وابغوا الحرانَ الخلاصَ فكُم بها      حَرانُ قلبِ نحوكم مُلتأحه  
نَجوا البلادَ مِنَ البلاءِ بعَدْلِكُم      فالظلمُ بادٍ في الجميعِ صُراحه

## ٢ - التأكيد على دور القيادة الإسلامية:

وأما موقف العماد من البطل المسلم، فقد تجلّى بصورة واضحة من خلال قصائد المديح التي نظمها في تمجيد القيادات الإسلامية التي تزعمت حركة الجهاد الإسلامي ضد الغزاة من الفرنج ممثلة في كل من نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي اللذين كانا شخصيتين محوريّتين في شعر الشعراء المعاصرين لهما بصورة عامّة، وشعر العماد الأصفهاني بصورة خاصّة. وذلك نظراً للدور الكبير الذي قام به هذان البطلان في مواجهة الغزاة والتصدي لهم متسلّحين بسلاح العقيدة والإيمان، مضحين بكل ما يمتلكانه من أجل دحر الغزاة، واستنقاذ البلاد المغتصبة من أيديهم، فعملاً بذلك على قلب موازين القوى، وأعاداً للأمة الإسلامية عزّها وكرامتها، وعززا ثقتها بنفسها وبقدراتها القتالية، فكانا بذلك موضع إعجاب وتقدير لدى شعراء عصرهما، إذ تمثلت فيهما الصورة المثلى للحاكم بكل ما يتحلّى به من صفات وفضائل، خاصّة وأن الدور الذي قاما به لم يقتصر على الاعداد للمعركة والتخطيط لها من بعيد، وإنما تجاوز ذلك إلى المشاركة الفعلية فيها، فجمعاً بذلك القيادتين السياسيّة والعسكريّة معاً.

ولما كانت الحروب الدائرة ما بين المسلمين الفرنج - إبان الحروب الصليبية - حرباً دينية

العاقد، قتله صلاح الدين سنة (٥٦٤ هـ). انظر: ابن خلكان (أحمد بن عمّاد، ت ١٢٨٢/٦٨١م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٨م، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، (ط) ١٩٦٨م، ج ٤٤٨/٣، وابن شداد (يوسف، ت ١٢٨٥/٦٨٤م)، سيرة صلاح الدين، تحقيق جمال الدين الشيال، مؤسسة الخانجي، القاهرة، (ط) ١٩٦٢م، ص ٤٠.

(١٠) ديوان العماد، ص ١١١-١١٢.

والبطل فيها يقاتل أعداء الدين باسم الدين، فإن صفة التدين والتقوى كانت من أبرز الصفات التي أثبتتها العماد لبطله الذي يقدمه في شعره الحربي، فهو مجاهد تقي ورع اجتمعت في شخصه التقوى والشجاعة معاً. وذلك على نحو ما نرى في قوله مخاطباً نور الدين<sup>(١١)</sup>:

قَدْ اسْتَوَى مِنْكَ تَقْوَى الـ لَهُ سِرٌّ وَجَهْرٌ  
تَقَاكَ وَالْمُلْكُ عِنْدَ الـ قِيَاسِ عَقْدٌ وَنَحْرٌ

وفي قوله فيه أيضاً<sup>(١٢)</sup>:

وَرِعٌ لَدَى الْمِحْرَابِ أَرْوَعُ مِجْرِبٍ فِي حَالَتِهِ إِنْ أَقَامَ وَإِنْ ظَعَنَ

وفي قوله مخاطباً صلاح الدين الأيوبي مؤكداً الفكرة نفسها، وذلك إذ يقول<sup>(١٣)</sup>:

يُوسُفُ مِصْرَ بَغَيْرِ التُّقَى وَبَذَلَ الصَّنَائِعَ لَمْ يُوصَفِ

ومن الجدير بالذكر هنا، أن فكرة ربط التقوى بالبطل هي فكرة قديمة في شعرنا العربي الذي صوّر البطولة الإسلامية في عصورها المختلفة. يقول الدكتور محمود ابراهيم: «... المتبّع للتاريخ الإسلامي منذ نشأة الإسلام وإلى عهد غير بعيد، لا بدّ أن يلحظ أنّ شخصية القائد الصالح في المجتمع الإسلامي لم تنسلخ يوماً عن شخصية الإنسان التقي»<sup>(١٤)</sup>.

ذلك لأنّ التقوى حينما تكون واقعاً عملياً سلوكياً في حياة البطل أو القائد، تعمل على ترسيخ صفة الشجاعة والإقدام في نفسه، وتجعله يضحي بنفسه دونما خوف أو وجل، فلا تخيفه قوة أعدائه مهما عظمت، ولا يثني عزمه أمر مهما كان عظيماً.

ولذا، فإنّ العماد كان يحرص على إضفاء هذه الصفة على شخصية بطله، لما لها من أهمية في ميادين القتال، فبطله فارس شجاع مقدام، يتقدّم جيوشه بنفسه في ساحات القتال، حتى غدا رعبه والتخوّف من لقائه من المظاهر الدالة على شجاعته وإقدامه. ومن هنا، فإنّ أعداءه من الفرنج كانوا يفرّون أمامه من ساحات القتال، حتى صار رعبه والتخوّف من لقائه قوة

(١١) ديوان العماد، ص ١٧٥.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٤٢١. وانظر أيضاً، ص ١٢٥، ١٤٦.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٣٠٤.

(١٤) صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني، ص ١٥٦.

منظورة في حروبه معهم . وذلك على نحو ما نرى في قوله مخاطباً نور الدين<sup>(١٥)</sup> :  
 أَمَاتَهَا رُغْبُكَ فِي حُصُونِهَا      كَأَنَّمَا حُصُونُهَا لُحُودُهَا  
 وفي قوله أيضاً<sup>(١٦)</sup> :

عَدُوَكُمْ وَاقِعٌ فِي الرُّغْبِ طَائِرُهُ      حَتَّى لَقَدْ حَسِبَ الدُّنْيَا لَهُ قَفْصًا  
 وعلى نحو ما نرى أيضاً في قوله مخاطباً صلاح الدين الأيوبي مؤكداً الفكرة نفسها . وذلك  
 إذ يقول<sup>(١٧)</sup> :

هَزَمْتُمْ جُنُودَ الْمُشْرِكِينَ بُرْعِيكُمْ      فَلَمْ يَلْبَثُوا خَوْفًا وَلَمْ يَمَكُثُوا دُعْرًا  
 ويقول فيه أيضاً<sup>(١٨)</sup> :

رُغْبُكُمْ يَقْلَعُ الْقِلَاعَ وَيُضْجِيهِ الـ      رَغْنُهَا مِنْ بِأْسِكُمْ مَنَفُوشًا  
 ويقول<sup>(١٩)</sup> :

أَخَفَتِ الشُّرَكَ حَتَّى الدُّعْرُ مِنْهُمْ      يُرَى قَبْلَ الْوِلَادَةِ فِي الْجَنِينِ  
 ويتحدث العماد عن المغزى الحقيقي الذي يقاتل البطل المسلم من أجله ، فيؤكد أنه لا  
 يسعى من وراء حروبه إلى المكاسب الدنيوية ، وإنما يقاتل في سبيل الله ، ويسعى إلى نيل  
 مرضاته ، فهو يقارع الأعداء حتى يعمل على رفع راية الله ، وإعلاء كلمته في الأرض ، وهذا  
 واضح في قوله مخاطباً نور الدين حيث يقول<sup>(٢٠)</sup> :

إِعْزَازُكَ الدِّينَ الْخَنِيفَ وَجَزْبُهُ      قَدْ خَصَّ أَهْلَ الشُّرْكِ بِالْإِهْوَانِ  
 أَدْعَنْتَ لِلَّهِ الْمُهِيمِينَ إِذْ عَنَتَ      لَكَ أَوْجُهُ الْأُمْلَاحِ بِالْأَدْعَانِ

(١٥) ديوان العماد، ص ١٤٥ . وانظر أيضاً، ص ١٢٦ ، ٤٢١ .

(١٦) المصدر نفسه، ص ٢٥٤ .

(١٧) المصدر نفسه، ص ١٦٠ .

(١٨) المصدر نفسه، ص ٢٤٣ . والرُّغْنُ : الجبل العظيم الصُّلب (لسان العرب : رغن) .

(١٩) المصدر نفسه، ص ٤٢٩ ، وانظر أيضاً، ص ١٤٧ ، ١٧٦ ، ٢٤٣ ، ٢٥١ ، ٢٣٩ ، ٤٥١ .

(٢٠) ديوان العماد، ص ٤١٧ .

ويقول أيضاً (٢١) :

عُقِدَتْ بِنَصْرِكَ رَايَةُ الْإِيمَانِ      وَبَدَتْ لِعَضْرِكَ آيَةُ الْإِحْسَانِ  
وفي قوله أيضاً مخاطباً صلاح الدين الأيوبي حيث يقول مؤكداً المغزى نفسه (٢٢) :  
حَمَى حَوْزَةَ الدِّينِ الْحَنِيفِ بِحَوْزِهِ      مِنْ الْخَالِقِ الْحُسْنَى وَمِنْ خَلْقِهِ الشُّكْرَا  
ومن هنا ، فقد بدا الغضب لما أصاب الدين وأهله معلماً واضحاً في شخصية بطله ،  
وذلك على نحو ما نرى في قوله مخاطباً أسد الدين شيركوه ، حيث يقول (٢٣) :  
وَمَا غَضِبْتَ لِدِينِ اللَّهِ مُتَّقِئاً      إِلَّا لَنَيْلِ رِضَا الرَّهْمَنِ بِالْغَضَبِ  
وما دام البطل على هذه الحال من التقوى والعزم على مواصلة الحروب مع الفرنج  
والتصدي لهم من أجل حماية الدين ونصرته ، فإن الله يمنحه القدرة على ذلك ، ويتولاه بعنايته ،  
وهذا واضح في قوله مادحاً نور الدين (٢٤) :

عَمَّدَ يَحْمَدُ عَيْشَ بِلْدَةٍ      مَالِكُهَا بَعْدَ لِهْ عَمُودُهَا  
مُؤَيَّدَ أُمُورِهِ بِعَزْمَةٍ      مِنْ السَّمَوَاتِ الْعُلَى تَأْيِيدُهَا  
وفي قوله مخاطباً صلاح الدين أيضاً ، حيث يقول (٢٥) :

فَاشْكُرِ اللَّهَ حِينَ أُولَاكَ نَصْرًا      فَهُوَ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ  
ويقول (٢٦) :

لَكَ اللَّهُ فِي كُلِّ مَا تَبْتَغِيهِ      بِحَقِّ ظَهِيرٍ وَنِعَمِ الظَّهِيرِ

(٢١) المصدر نفسه ، ص ٤١٠ .

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ٦١٠ .

(٢٣) المصدر نفسه ، ص ٨١ .

(٢٤) المصدر نفسه ، ص ١٤٤ .

(٢٥) المصدر نفسه ، ص ١٨٢ .

(٢٦) ديوان العماد ، ص ١٩٣ .



ويقول أيضا (٢٧):

يُمِضِي لَكَ اللَّهُ فِي قِتَالِهِمْ عَزِيمَةً لِلْجِهَادِ تُرْهِفُهَا

ويمضي العماد إلى ما هو أبعد من ذلك، حين يرى أن الله هو الذي اختار بطله من بين ملوك الأرض لنصرة دينه، ومقارعة أعدائه، لأنه كان أهلاً لذلك بما يتصف به، وذلك على نحو ما نرى في قوله وهو يمدح صلاح الدين (٢٨):

أَعْطَاهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ دَوْلَةً      عَزَّةُ أَهْلِ الدِّينِ فِي إِعْزَازِهَا  
حَازَ الْعُلَى بِبَأْسِهِ وَجُودِهِ      وَهُوَ أَحَقُّ الْخَلْقِ بِاحْتِيَازِهَا  
بِجَدِّهِ أَفْنَى كُنُوزاً فَنَى الـ      مُلُوكُ فِي الْجَدِّ عَلَى اكْتِنَازِهَا  
مُهْلِكُ أَهْلِ الشَّرِكِ طُرّاً رُوحَهَا      أَرْمَنُهَا إِفْرَنْجُهَا إِنْجَازِهَا

وحق يبرز العماد صورة بطله المسلم القيادية، ويوضح دوره في مواجهة الغزاة والتصدي لهم، كان يقابل بين ما يقوم به في ميادين القتال، وبين موقف الحكام المسلمين المتقاعسين عن نصرة الدين ومواجهة الفرنج. ومن الأمثلة الواضحة على ذلك قوله مخاطباً نور الدين زنكي (٢٩):

يَا أَعْظَمَ النَّاسِ قَدْرًا      وَهَلْ لَغَيْرِكَ قَدْرُ؟  
وَسَاحِرًا حِينَ نَامُوا      وَقَائِمًا حِينَ قَرُّوا  
مَا اعْتَدْتَ إِلَّا وَفَاءً      وَعَادَةُ الْقَوْمِ غَدْرُ  
وَفَعْلَكَ الدَّهْرَ غَزْوُ      لِمَشْرُكِينَ وَقَهْرُ  
وَفَعْلَ غَيْرِكَ ظُلْمُ      لِمُسْلِمِينَ وَقَسْرُ

ويقول في موضع آخر في نور الدين أيضا (٣٠):

بِالدِّينِ وَالْمُلْكِ لَهُ قِيَامُهُ      وَلِلْمُلُوكِ عَنْهَا قُعُودُهَا  
وَدَأْبُهُ ثَلَمُ تُغُورِ الْكُفْرِ لَا      لَثَمِ تُغُورِ نَاقِعِ بَرُودُهَا

(٢٧) المصدر نفسه، ص ٣١٠. وانظر أيضا ص ٢٣٣.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٢٢٥.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ١٧٥.

(٣٠) المصدر نفسه، ص ١٤٤.

وقوله مخاطباً صلاح الدين أيضاً<sup>(٣١)</sup>:

إِلَيْكَ هَجَرْتُ مُلُوكَ الزَّمَانِ      فَمَالِكَ وَاللَّهِ فِيهِمْ نَظِيرُ  
وَفَجَّرَكَ فِيهِ الْقَرَى وَالْقُرَانُ      جَمِيعاً وَفَجَّرَ الْجَمِيعَ الْفُجُورُ  
وَأَنْتَ تُرِيقُ دِمَاءَ الْفَرَنْجِ      وَعِنْدَهُمْ لَا تُرَاقُ الْخُمُورُ

ثم يتحدث عن العدالة الاجتماعية التي حققها كل من نور الدين وصلاح الدين للرعية في مصر والشام. فيقدم لنا كلاً منهما حاكماً عادلاً رحيماً حريصاً على راحة المسلمين وطمأنينتهم في ظل حكمه. وذلك على ما نحو ما نرى في قوله في نور الدين وما حققه للرعية في الشام، حيث يقول<sup>(٣٢)</sup>:

جَلَا ظِلَامَ الظُّلَمِ نُورُ الدِّينِ عَنْ      أَرْضِ الشَّامِ فَلَهُ تَحْمِيدُهَا  
إِنَّ الرِّعَايَا مِنْهُ فِي رِعَايَةٍ      وَنِعْمَةٌ مُسْتَوْجِبٌ مَزِيدُهَا  
لَنَوْمِهَا يَسْهَرُ بَلْ لَأَمْنِهَا      يَخَافُ بَلْ يُخْصِبُهَا بِجُودِهَا  
قَدْ أَسْبَغَ اللَّهُ لَنَا بَعْدَ ذَلِكَ      ظِلَالِ أَمْنٍ وَارِفٍ مَدِيدُهَا

وقوله في صلاح الدين أيضاً، وما حققه للرعية في مصر، وذلك إذ يقول<sup>(٣٣)</sup>:

مِصْرَ يَبْسُفُهَا أَضْحَتْ مُشْرِفَةً      وَكُلُّ أَمْرِ لَهَا بِالْعَدْلِ مُنْضَبُطٌ

كما سبق، نلاحظ أن الفضائل والصفات التي أسبغها العماد على قادة المسلمين وأبطالهم الذين تزعموا حركة الجهاد الإسلامي ضد الغزاة من الفرنج هي في معظمها صفات حرية تتعلق بالمعركة وما تتطلبه من شجاعة، وصبر، وتدين، وحسن قيادة للجيش، وخوض للمعارك، وتضحية، وعدالة، وما إلى ذلك.

ولكن الناظر في صورة البطل المسلم التي يقدمها العماد في شعره الحربي لكل من نور الدين وصلاح الدين، يلحظ أنها تنهل من معين واحد يقوم على رسم صورة مثلى للقيادة الإسلامية التي تجسد تطلعات الجماعة الإسلامية في مصر والشام إلى القيادة الواعية التي انتظرتها بفارغ الصبر لكي تعمل على توحيد صفوفها ضد أعدائها المترصين بها، وتستنفذ

(٣١) المصدر نفسه، ص ١٩٤. وانظر أيضاً، ص ٣١٠، ٣١١، ٤٢٨، ٤٢٩.

(٣٢) ديوان العماد، ص ١٤٤. وانظر أيضاً، ص ١٧٥، ٢٨٥، ٣٨٠، ٣٨١.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٢٧٥. وانظر أيضاً، ص ٢٨٢، ٣٠٨.

البلاد من أيديهم، وتخلصها ممتعاني منه. ومن هنا، فقد جاء التشابه في الصفات، والفضائل التي أثبتتها العماد لكل من نور الدين وصلاح الدين قويا.

وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن هذين البطلين قد تشابها في هدف واحد كرس كل منهما حياته من أجله، وربما أراد العماد أن يقول: إن التحلي بمثل هذه الصفات هو أساس النصر على الأعداء في كل زمان ومكان.

ومهما يكن من أمر، فإن الصور التي يرسمها العماد لبطله بأبعادها المختلفة النفسية والفكرية ليست بعيدة عن المألوف من صور البطولة الإسلامية التي عرفت في تاريخ الإسلام. ومن هنا، فقد حرص العماد على إلحاق بطله بأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وغيرهم من نماذج التقوى والشجاعة والتضحية التي عرفت في تاريخ الإسلام وغيره. فنور الدين كما يرى العماد يتفق مع هذه النماذج في صفاته زهداً وشجاعة وعدلاً وسداد رأي. وذلك على نحو ما نرى في قوله (٣٤):

لو في زمان رسول الله كنت أتت  
أصبحت بالعدل والإقدام منفرداً  
إسكندر ذكروا أخبار حكيمته  
ورستم خبرونا عن شجاعته  
في هذه السيرة المحمودة السور  
فقل لنا: أعلي أنت أم عمر؟  
ونحن فيك رأينا كل ما ذكروا  
وصار فيك عياناً ذلك الخبر  
وفي قوله أيضاً مؤكداً الفكرة نفسها (٣٥):

في بأس عمرو في بسالة حيدر  
عمران عدلك للبلاد كائناً  
في نطق قس في تقى سلمان  
قد عاش في أيامك العمران  
وصلاح الدين في جهاده، وصدق عزمته في حروبه مع الفرنج هو أبو بكر وعمر في فضله وعدله وحلمه، وهو علي بن أبي طالب في شجاعته وشدة بأسه في نصرته الدعوة والحق، وهو

(٣٤) ديوان العماد، ص ١٦٩ - ١٧٠.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٤١٨. عمرو، هو: عمرو بن عبدود الذي اجتاز الخندق إلى المسلمين، فقلته علي بن أبي طالب. انظر: ابن هشام ت ٢١٣/٨٢٢٨م السيرة النبوية، ٤م، تحقيق محمد فهمي، مكتب التراث الإسلامي، حلب، (ط<sup>١</sup>)، (بلا تاريخ) ج ١٥١/٣. وأما سلمان، فهو سلمان الفارسي الصحابي المعروف الذي أشار على الرسول (عليه السلام) بحفر الخندق. كان تقياً ورعاً (ت ٣٦ هـ). انظر: ابن عساكر (علي بن الحسن ت ١١٧٦/٥٧١م) تهذيب تاريخ دمشق، تحقيق الشيخ عبدالقادر بن بدران، مطبعة روضة الشام، دمشق، (ط<sup>١</sup>) ١٣٢٩ هـ. ج ١٨٨/٦.

عثمان في بذله وتضحيته في نشر الدعوة، وسلمان الفارسي في زهده وتدينه، وذلك إذ يقول<sup>(٣٦)</sup>:

في فَضْلِهِ في عَذْلِهِ في جِلْمِهِ      صِدِّيقُهُ فارُوقُهُ عثمانُهُ  
هو في السَّمَحِ وفي اللِّقَاءِ عَلَيْهِ      هو في العَفَافِ وفي التُّقَى سَلْمَانُهُ

ومن الجدير بالذكر هنا، أنَّ العماد في ما أصفاه على هذين القائدين البطلين من فضائل وصفات، وفي إلحاقهما بالخلفاء الراشدين وغيرهم من نماذج البطولة كان موفقاً فيما ذهب إليه، ذلك لأننا نجد أنَّ الواقع التاريخي الذي عاشه هذان البطلان يؤيد ذلك. ولعلَّ خير شاهد على ما نقول هو وصف أبي شامة المقدسي لهما، وذلك إذ يقول في مقدمة كتاب الروضتين «ثم وقفت في غير هذا الكتاب على سيرة سيّد الملوك بعده الملك الناصر صلاح الدين، فوجدتها في المتأخرين كالعمرين في المتقدمين، فإنَّ كلَّ ثانٍ من الفريقين حذا حذو من تقدمه في العدل والجهاد، واجتهد في إعزاز دين الله أيَّ اجتهد<sup>(٣٧)</sup>».

### ٣- الحُض على استعادة الأراضي المحتلة:

كانت قضية الأراضي الإسلامية المحتلة التي سقطت في أيدي الغزاة من الفرنج - منذ أن وطئت أقدامهم أرض المشرق الإسلامي - من القضايا الكبرى التي شغلت بال المسلمين وخاصة الشعراء منهم، إذ كانوا لسان الأمة المعبر عن مشاعرها وهمومها، فاكثروا من حث القادة الذين تزعموا حركة الجهاد الإسلامي على تحرير الأراضي المغتصبة عامّة وبيت المقدس خاصّة ذلك لأنَّ «مكانة القدس في العقيدة الإسلامية، وارتباطها بالحياة الإسلامية الأولى، قد جعلت من القدس والأرض المباركة من حولها أكثر من مجرد تراب يعيش الإنسان المسلم فوقه، بل قاعدة أرضية مقدّسة من قواعد الإسلام<sup>(٣٨)</sup>».

ولذا، فقد كان تحرير الأرض عامّة، والقدس خاصّة أمنية، بل هدفاً لكل من تصدّى من المسلمين لمواجهة الفرنج وعلى رأسهم نور الدين الذي نذر نفسه لاستنقاذ بيت المقدس من

(٣٦) ديوان العماد، ص ٤٣٦.

(٣٧) الروضتين، طبعة دار الجليل، ج ٣/٤ - ٤. وانظر حول ذلك أيضاً: محمود إبراهيم، حطين، دار البشير، عمّان (ط<sup>١</sup>) ١٩٨٧، ص ٤٧، وعبدالجليل عبدالمهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، دار البشير عمّان، (ط<sup>١</sup>) ١٩٨٩م، ص ١٢١.

(٣٨) محمود إبراهيم، صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني، دار البشير، عمّان، (ط<sup>٢</sup>) ١٩٨٨، ص ١٤٤.

أيدي الغزاة من الفرنج ، وذلك واضح في رثاء العماد له حيث يقول (٣٩) :

أَزْهَدَتْ فِي دَارِ الْفَنَاءِ وَأَهْلِهَا      وَرَغَبَتْ فِي الْخُلْدِ الْمُقِيمِ وَحُورِهِ  
أَوْ مَا وَعَدَتْ الْقُدْسُ أَنَّكَ مُنْجِزُ      مِيعَادِهِ فِي فَتْحِهِ وَظَهْوَرِهِ  
فَمَتَى تُجِيرُ الْقُدْسَ مِنْ دَسِّ الْعِدَا      وَتُقَدِّسُ الرَّحْمَنَ فِي تَطْهِيرِهِ

ومن هنا ، فقد كان العماد يستغل آية مناسبة يقول فيها ، لكي يجرّص القادة على مواجهة الغزاة واستنقاذ البلاد من أيديهم ، حتى غدت فكرة التحرير في شعره لحنا مميزا ظل يردده في معظم قصائده وأشعاره التي رفعها إلى حكام عصره الذين تزعموا حركة الجهاد الإسلامي وعلى رأسهم نور الدين زنكي ، وأسد الدين شيركوه ثم صلاح الدين الأيوبي وغيرهم ، سواء أكان ذلك في تمجيدهم مدحا ورثاء أم في تهنتهم بالانتصارات ، أم في التشوق والحزن . ومن الأمثلة الواضحة على ذلك قوله في إحدى مدائحه التي رفعها إلى صلاح الدين سنة (٥٦٤ هـ) حيث يقول (٤٠) :

يَا تُجْجِلُ الْبَحْرَ بِالْأَيْدِي      قَدْ آنَ أَنْ تُفْتَحَ السَّوَاهِلُ  
فَقَدِّسْ الْقُدْسَ مِنْ خِيَاثٍ      أَرْجَاسٍ كُفِّرَ غُتْمُ أَرَاذِلُ

ويقول في قصيدة أخرى رفعها إلى صلاح الدين سنة (٥٧٢ هـ) مؤكداً الفكرة نفسها ، حاضاً على تحرير البلاد المغتصبة بالقوة :

فَسِرْ وَافْتَحِ الْقُدْسَ وَاسْفِكْ بِهِ      دِمَاءَ مَتَى تُجْرِيهَا يَنْظَفِ  
وَاهِدِ إِلَى الْأَسْبِتَارِ الْبِتَارِ      وَهَذَا السُّقُوفِ عَلَى الْأَسْقُفِ  
وَحَلِّصْ مِنَ الْكُفْرِ تِلْكَ الْبِلَادَ      يُحْلِصُكَ اللَّهُ فِي الْمَوْقِفِ (٤١)

وقد تبدّت هذه الفكرة أيضاً بوضوح في قصيدة للعماد رفعها إلى صلاح الدين معزيا بوفاة عمه أسد الدين شيركوه سنة (٥٦٤ هـ) ومهنئاً إياه بوزارة مصر ، وذلك إذ يقول (٤٢) :

(٣٩) ديوان العماد ، ص ٢١٥ .

(٤٠) المصدر نفسه ، ص ٣٢٦ . والغتم جمع غتتم ، وهو : من لا يفصح شيئا لعجمته (لسان العرب : غتم) .

(٤١) ديوان العماد ، ص ٣٠٤ . والأسبتار : طائفة من الفرسان الذين ، أسست بعد استيلاء الفرنج على بيت المقدس ، وقد كان لها دور كبير في الحروب الصليبية - انظر مفرج الكروب ، ٧٥/٢ ، والنجوم الزاهرة ، ٣٣/٦ .

(٤٢) ديوان العماد ، ص ١٦١ .

وما يَرْتَوِي الإسلامُ حتى تُغَادِرُوا      لكم من دمَاءِ الغَادِرِينَ بها غُدْرًا  
فَضُبُّوا على الإفرنجِ سَوَطَ عذابِها      بأنْ تَقْسِمُوا ما بينها القَتْلُ والأسْرَا  
ولا تُهْمَلُوا البيتَ المُقَدَّسَ واعزِّمُوا      على فَتْحِهِ غَازِينَ وافْتَرِعُوا البِكْرَا  
وفي قصيدة أخرى كان يتشوق فيها إلى دمشق سنة (٥٧٠ هـ)، ويمدح بها صلاح الدين، وذلك إذ يقول (٤٣):

نُهِوضًا إلى القُدْسِ يَشْفِي الغَلِيلَ      بِفَتْحِ الفُتُوحِ وماذا عَسِيرُ  
سَلِّ اللهُ تَهِيلَ صَعْبِ الخُطُو      بِفَهْوٍ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرُ

ومن هنا، كان العماد فيما قاله في حروب المسلمين مع الفرنج داعية إلى الإعداد والقوة معا من أجل التحرير، إذ عمل على تعبئة المسلمين تعبئة معنوية ونفسية، وشحن نفوسهم على مواجهة الغزاة من الفرنج. ولذا فإن تأكيدَه على فكرة التحرير واستعادة البلاد المغتصبة من أيديهم كانت تتعالى إثر تعبيره عن فرحته بوحدة الصف الإسلامي من ناحية، وإثر تعبيره عن فرحته ونشوته بالظفر والانتصار على الغزاة من ناحية أخرى. وذلك على نحو ما نرى في قوله مهنثنا نور الدين بانضمام مصر إلى الشام ووقوفها صفا واحداً في مواجهة الغزاة، وذلك إذ يقول (٤٤):

أَغْزُ الفَرَنْجَ فهذا وَقْتُ عَزْوِهِمْ      واحِطْهُمْ جُوعَهُمْ بالذَّابِلِ الحَظِيمِ  
وطَهِّرِ القُدْسَ مِنْ رِجْسِ الفَرَنْجِ وَثُبْ      على البَغَاثِ وَثُوبَ الأَجْدَلِ القَظِيمِ  
فَمَلِكُ مِصْرَ وَمَلِكُ الشَّامِ قد نُظِمَا      في عِقْدِ عِزٍّ مِنَ الإسلامِ مُنْتَظِمِ

ويقول من قصيدة أخرى رفعها الى السلطان صلاح الدين حينما تسلم بعلبك سنة (٥٧٠ هـ)، وضمها إلى الصف الإسلامي (٤٥):

فَتَمَلَّ فَتَحَكَ واقْصِدِ الفَتْحَ الذي      بِحُصُولِهِ لِفَتْوحِكَ الإِثْمَامُ  
دَمٌ لِلْعُلَى حتى يَدُومَ نِظَامُهَا      واسَلِّمْ يَعِزُّ بِنَصْرِكَ الإسلامُ

(٤٣) المصدر نفسه، ص ١٩٤.

(٤٤) المصدر نفسه، ص ٣٨٢. وانظر أيضاً، ص ١٠٢. الذابِل - الرمح، والبغاث: الطيور التي لا تصيد لضعفها، وإثما تصاد. وأما الأجدل القطم، فهو الصقر الشديد الذي يشتهي اللحم. (لسان العرب: ذبل، بغث، جدل)

(٤٥) ديوان العماد، ص ٣٧٨، وانظر أيضاً، ص ١٠٢.

ولذا فما من معركة خاضها المسلمون وحققوا فيها انتصاراً على الفرنج ، إلا وكانت حافزاً قوياً للعماد ، وسيلة مؤثرة من وسائل التحريض والحض على مواجهة الغزاة ، واستعادة المدن المغتصبة من أيديهم . ومن الأمثلة الواضحة على ذلك قوله مخاطباً صلاح الدين إثر معركة حطين وتحرير بيت المقدس سنة (٥٨٣ هـ) ، حيث يقول (٤٦) :

تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الَّذِي لَكَ أَصْبَحْتَ	كَلَاءَتُهُ دِرْعاً وَعِصْمَتُهُ تَرْساً
وَدَمَّرَ عَلَى الْبَاقِينَ وَاجْتَثَّ أَصْلَهُمْ	فَإِنَّكَ قَدْ صِيرْتَ دِينَارَهُمْ قَلَساً
وَلَا تَسَّرْ شِرْكَ الشَّرْقِ غَرْبُكَ مَرْوياً	بِمَاءِ الطُّلَى مِنْ صَادِيَاتِ الطُّبَى الْخَمْسَا
وَأَنَّ بِلَادَ الشَّرْقِ مُظْلَمَةٌ فَخُذْ	خُرَّاسَانَ وَالنَّهْرِينَ وَالتُّرْكَ وَالْقُرْسَا
وَبَعْدَ الْفَرَنْجِ الْكُرْكَ فَاقْصِدْ بِلَادَهُمْ	بِعَزْمِكَ وَامْلَأْ مِنْ دِمَائِهِمُ الرُّمْسَا

وقوله أيضاً مخاطباً حسام الدين عمر بن لاجين ابن أخت السلطان صلاح الدين مهنتاً بفتح القدس سنة (٥٨٣ هـ) ، حيث يقول (٤٧) :

قُلْ لِلْمَلِكِ صَلَاحُ الدِّينِ أَكْرَمُ مَنْ	يَمِثِّي عَلَى الْأَرْضِ أَوْ مَنْ يَرْكَبُ الْفَرَسَا
مَنْ بَعْدَ فَتْحِكَ بَيْتَ الْقُدْسِ لَيْسَ سِوَى	صُورٍ فَإِنْ فَتَحْتَ فَاقْصِدْ طَرَابُلُسَا
أَنْزُرْ عَلَى يَوْمِ أَنْطَرُسُوسَ ذَا الْجَبِ	وَابْعَثْ إِلَى لَيْلٍ أَنْطَاكِيَةَ الْعَسَا
وَأَخْلِ سَاحِلَ هَذَا الشَّامِ أَجْمَعَهُ	مِنْ الْعُدَاةِ وَمَنْ فِي دِينِهِ وَكَسَا
وَلَا تَدْعُ مِنْهُمْ نَفْساً وَلَا نَفْساً	فَإِنَّهُمْ يَأْخُذُونَ النَّفْسَ وَالنَّفْسَا
نَزَلَتْ بِالْقُدْسِ فَاسْتَفْتَحْتَهُ وَمَنَى	تَقْصِدْ طَرَابُلُسَا فَاَنْزِلْ عَلَى قَدَسَا

#### ٤ - الجيش الإسلامي :

عبر العماد في شعره الذي صور حروب المسلمين مع الفرنج عن اعتزازه واعجابه الشديد بالجيش الإسلامي الذي خاض المعارك والحروب ضد الغزاة من الفرنج بقيادة نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي وكبار قادتهما ، فأسهم في صنع الانتصارات العظيمة

(٤٦) المصدر نفسه ، ص ٢٣٣ . الطلي : الاعناق (لسان العرب : طلي) .

(٤٧) ديوان العماد ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ . انطرسوس : بلدة على سواحل الشام من أعمال دمشق وهي آخر أعمالها من ناحية حمص . معجم البلدان ١ / ٢٧٠ ، وهي في أيامنا الحالية تعرف بطرطوس . وقُدَسَا : بلدة من أعمال حمص بالشام . معجم البلدان ٤ / ٣١١ .

التي تُوِّجَتْ باستعادة بيت المقدس وبقية المدن الإسلامية المغتصبة من أيدي الغزاة. وذلك لأنَّ جند الجيش الإسلامي الذين يصفهم العماد كانوا متمسكين بعقيدتهم مؤمنين بها، مجاهدين في سبيل الله، يسعون لنيل رضاه، وإعلاء كلمته في الأرض، إذ كانوا يرون الجهاد وخوض غمار الحروب (دِيناً وحتماً واجباً، فلا يحتاج إلى باعِثٍ سُلْطاني) (٤٨).

ولذا فإنَّ الملائكة كانت عوناً لهم في حروبهم مع الفرنج كما يتراءى للعماد، وذلك على نحو ما نرى في قوله مخاطباً صلاح الدين، واصفاً جنده الذين شهدوا حطين وفتحوا بيت المقدس (٤٩):

جُنُودَكَ أَمْلاكَ السَّمَاءُ وَظَنَّهُمْ عِدَاتُكَ جِنَّ الْأَرْضِ فِي الْفَتْكِ لَا الْإِنْسَا

ومن هنا، فقد تغنى العماد بالمغزى الديني الذي يقاتلون من أجله ومن الأمثلة الواضحة على ذلك قوله في جند نور الدين (٥٠):

هَمَّ كَالصَّحَابَةِ يَوْمَ بَدْرٍ حَاوَلُوا نَصَرَ النَّبِيِّ وَنُبْتُ عَنْ حَسَانٍ

ومن الصور الأساسية التي نراها في إطار الصورة العامة للجيش الإسلامي كثرته العددية، فهو جيش ضخم كالبحر كثرة، وكالسيل المتدفق حركة. وذلك على نحو ما نرى في قوله مصوراً جند صلاح الدين بقيادة فروح شاه (٥١):

قَدْ كَانَ جَيْشُكُمْ كَبْحَرٍ زَاخِرٍ وَاللَّابِسُونَ جَوَاشِينَا جِيَتَانُهُ  
فَطَمَى هُلُوكَهُمْ عَلَيْهِمْ بِحَرْكُمُ بَأْساً وَغَرَّقَ فُلُوكَهُمْ طُوفَانُهُ

وفي قوله أيضاً (٥٢):

وَلِرُبِّ نَجَرٍ رَائِعٍ حَمَلَاتُهُ وَنَحَالُهُ فِي الزَّحْفِ سَيْلٌ مُدْهَدُهُ  
يَقْرِئُ الْعَوَاسِلَ مِنْ فَرَائِسِ أَسَدِهِ لَحْماً بِنَارِ الْبَيْضِ مُشْعَلَةٌ طُهْيِي

(٤٨) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ١٢/٢، وانظر: بيت المقدس، ص ١١٢.

(٤٩) ديوان العماد، ص ٢٣١.

(٥٠) المصدر نفسه، ص ٤١٥.

(٥١) ديوان العماد، ص ٤٣٦. وأما الجواشن، فهي جمع جوشن، وتعني الدرع أو ما يُلبس من السلاح (لسان العرب: جشن).

(٥٢) المصدر نفسه، ص ٤٥١. والمَجَر: الجيش العظيم المجتمع، والمدهد: المتدحرج أو المنحدر من علٍ. وأما العواسل، فهي الرماح. (لسان العرب: مجر دهد، عسل).



ولذا، فإنه كان يجب أشعة الشمس عن الأرض من كثرة الغبار المنبعث من حركته وهو خارج للملاقاة العدو كما يتراءى للعماد، وذلك إذ يقول (٥٣):

إذا أطلق الملك المظفر في السوغي أعتته فالشمس بالنقع تحبس

ومن الواضح هنا، أن العماد كان يتعمد التأكيد على كثرة الجيش الإسلامي لكي يحدث استشارات معينة في نفوس المسلمين ويرفع معنوياتهم القتالية، لأن الطرف الآخر المعادي كان قد اتخذ من كثرة العددية أيضاً وسيلة لإحباط روح المسلمين القتالية ظناً منه أن العدد هو أساس النصر على المسلمين، ولكنه - الى جانب ذلك - لا يهمل الحديث عن شجاعة الجيش الإسلامي وجراته القتالية المشفوعة بالعزيمة القوية على مواصلة الجهاد وتحرير البلاد، إذ كان جنده يقبلون على المعركة غير هيأين، فلا ترهبهم المنية، ولا تخيفهم قوة عدوهم مهما عظمت. وذلك إذ يقول في جند صلاح الدين الذين خاضوا معركة حطين سنة (٥٨٣ هـ) وفتحوا بيت المقدس (٥٤):

وَنِعَمَ بِجَالِ الْخَيْلِ حَظِيْنٌ لَمْ تَكُنْ مَعَارِكُهَا لِلْجُرْدِ ضَرْساً وَلَا دَهْساً  
عَدَاةُ أَسْوَدِ الْحَرْبِ مُعْتَقِلُو الْقَنَا أَسَاوِدُ تَبْغِي مِنْ نُحُورِ الْعِدَا نَهْساً

ويقول في موضع آخر (٥٥):

لله جَيْشٌ بِالْمَرْوَجِ عَرْضَتُهُ أَسْدُ الْعَرِينِ رَجَالُهُ وَسْلَاحُهُ  
وَمِنْ الْحَدِيدِ سَوَابِغاً أَبْدَانُهُ وَمِنْ الْمَضَاءِ عَزَائِباً أَرْوَاحُهُ  
وله قَوَارِيسُ بِالنُّفُوسِ سَمَاحُهَا أَتَعَادُ بِالْعِرْضِ الْمَصُونِ شِحَاحُهُ؟

ولذا، فقد غدا رعب الجيش الإسلامي والتخوف من لقائه قوة منظورة في حروبه مع الفرنج الذين كانوا يتهيبون مواجهته والدخول معه في معركة مباشرة، إذ كان التحرز والتحوط من صفاتهم الواضحة في حروبهم مع المسلمين كما يتراءى للعماد، وذلك إذ يقول مخاطباً صلاح الدين (٥٦):

(٥٣) ديوان العماد، ص ٢٣٨. والنقع: غبار المعركة (لسان العرب: نقع).

(٥٤) المصدر نفسه، ص ٢٣٤. الجرد: الخيل العتاق الكريمة، والضرس: الحشن الصعب، والدهس: المكان الذي يثقل فيه المشي. وأما النهس، هو التثف بمقدم الأسنان. (لسان العرب: جرد، ضرس، دهس، نهس).

(٥٥) المصدر نفسه، ص ١١١.

(٥٦) المصدر نفسه، ص ٢٤٢.

سَرَايَاكَ تَبَعْتُ قُدَّامَهَا مِنْ الرُّعْبِ نَحْوَ الْأَعَادِي جُيُوشَا

ويقول مؤكداً الفكرة نفسها في موضع آخر<sup>(٥٧)</sup>:

بِجَيْشِكَ أَزْعَجْتَ جَاشَ الْعَدُوِّ فَمَا نَفَرُ مِنْهُ إِلَّا نَفُورُ

ذلك لأنهم كانوا مدربين على القتال مهرة فيه، إذ كانوا يتصفون بسرعة الحركة والمناورة من ناحية، وبالقدرة الفائقة على استخدام أدوات القتال وإصابة الهدف، وخاصة وهم على ظهور الخيل من ناحية أخرى. وذلك إذ يقول في وصف جند نور الدين الذين خاضوا مع الفرنج معركة شهدها العماد سنة (٥٦٨ هـ)<sup>(٥٨)</sup>:

وَكَأَنَّمَا الْأَكْرَادُ فَوْقَ جِيَادِهَا	عِقبَانُ مُلَحَمَةٍ عَلَى عِقبَانِ
لَمْ يَتْرِكِ الْأَتْرَاكُ فِيهِمْ غَايَةً	بِالْفَتْكِ وَالْإِرْهَاقِ وَالْإِنْخَانِ
مِنْ كُلِّ رَامٍ سَهْمُهُ مِنْ وَهْمِهِ	أَهْدَى إِلَى إِنْسَانٍ عَيْنَ الرَّأْيِ
الْحَائِزُونَ مِنَ السَّبَاقِ خِصَالَهُ	فِي مُلْتَقَى حَرْبٍ فِي مَيدَانِ

وحتى يبرز العماد مقدرة الجيش الإسلامي على المناورة في المعركة، ويصور سرعة الحركة التي يتمتع بها، فإنه كان يؤكد تأكيداً واضحاً على تصوير أدواته القتالية الخفيفة التي كان يقاتل بها من سيوف ورماح وقسي ودروع. وذلك على نحو ما نرى في قوله واصفاً جيش صلاح الدين<sup>(٥٩)</sup>:

يَقْرِي الْعَوَاسِلَ مِنْ فَرَائِسِ أَسَدِهِ	لَحْماً بَنَارِ الْبَيْضِ مُشْعَلَةً طُهِى
مَتَحَتْ بِهِ قُلُوبَ الْقُلُوبِ ذَوَابِلُ	أَشْبَهْنَ أَشْطَاناً بِأَيْدِي مُتَّهِ
فَالْأَسْمَرُ الْعَسَالُ يَحْكِي نَاجِلاً	مُتَلَوِّباً مِنْ سَقَمِهِ لَمْ يَنْقَه
وَالْأَبْيَضُ الرَّعَافُ يُشْبِهُ مُدْنِفاً	أَلْفَ الضَّنَى وَأَصَابَهُ جُرْحٌ صَهِي

(٥٧) المصدر نفسه، ص ١٩٢. وانظر، ص ٤١٥، ٤١٦، ٤٥١.

(٥٨) ديوان العماد، ص ٤١٤-٤١٥.

(٥٩) المصدر نفسه، ص ٤٥١-٤٥٢. الأشطان: الحبال، والمتلَوِّب الذي لم ينقه أو المريض المتعطش للشفاء، والرَّعَاف: نزول الدم من الأنف وتعني هنا أن السيوف تقطر دماً. وأما الجُرْح الصَّهِي، فهو: الجرح الطري الندي الذي لم يمض عليه زمن.

وفي قوله مخاطباً صلاح الدين أيضاً<sup>(٦٠)</sup>:

صَرَبُ الطَّلَى بِالْمَشْرِفِ طِلَابُكُمْ      وبراح مَنْ شَرِبَ الطَّلَا طَلَاخُهُ

ولذا، فإننا لا نجد في شعر العماد الذي صَوَّرَ المعارك والحروب الدائرة بين المسلمين والفرنج وصفاً للمنجنيقات أو السفن الحربية وغيرها من أدوات القتال الثقيلة التي استخدمها المسلمون في حروبهم مع الفرنج، وخاصة في مهاجمتهم لقلاع الفرنج وحصونهم المنتشرة على الأراضي المحتلة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنَّ معظم جند المسلمين الذين خاضوا غمار المعارك والحروب مع الفرنج كانوا من الخيالة والرجالة، وهؤلاء تكون أسلحتهم في الغالب خفيفة، إذ لا تتجاوز السيوف الرماح والقسي والدبابيس والدروع وغيرها من أدوات القتال الخفيفة التي استخدمها المحاربون القدماء على مر العصور.

ويتحدث العماد عن العناصر التي تكوّن منها جيش المسلمين الذي خاض المعارك والحروب مع نور الدين وصلاح الدين، فيشير إلى أنه كان يضم عناصر إسلامية مختلفة كانت قد تجمعت من أماكن وجنسيات مختلفة تحت قيادة واحدة لمواجهة الغزاة من الفرنج والتصدي لهم. وذلك على نحو ما نرى في قوله مخاطباً نور الدين<sup>(٦١)</sup>:

وَبَلَغْتَ بِالتَّأْيِيدِ أَقْصَى مَبْلَغٍ      مَا كَانَ فِي وَسْعٍ وَلَا إِمْكَانٍ  
دَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا فَقَاصِيهَا إِذَا      حَقَّقْتَهُ لِنَفَازِ أَمْرِكَ دَانٍ  
فَمِنْ الْعِرَاقِ إِلَى الشَّامِ إِلَى دُرَى      مِصْرٍ إِلَى قُوصٍ إِلَى أَسْوَانٍ  
لِلرُّومِ وَالْإِفْرَنْجِ مِنْكَ مَصَائِبُ      بِالتُّرْكِ وَالْأَكْرَادِ وَالْعُرَبَانِ

وبما سبق، نلاحظ أنَّ الغالب على صورة الجيش الإسلامي الذي خاض المعارك والحروب بقيادة نور الدين وصلاح الدين، أنها كانت إسلامية في معظمها، إذ كان القائد المسلم وجنده هم أبطالها، وأمّا قائد الفرنج وجنده، فلا نراهم إلا وهم يفرون من ميادين القتال، أو وهم أشلاء مبعثرة على أرض المعركة.

(٦٠) المصدر نفسه، ص ١١٠، وانظر أيضاً، ص ١١١، ٤١٢. والطلاق: ضد الصلاح.

(٦١) ديوان العماد، ص ٤١٧. وقُوص مدينة كبيرة في صعيد مصر (معجم البلدان ٤/٤١٣) وهي في أيامنا الحالية محافظة من محافظات الصعيد. وأسوان مدينة كبيرة في آخر صعيد مصر على حدود السودان. معجم البلدان؛ ٩٩١/١ وهي في أيامنا الحالية محافظة من محافظات الصعيد وبها السد العالي.

## ٥ - الجيش الفرنجي :

اضطلع العماد بحكم موقعه من نور الدين وصلاح الدين وصلته بهما بمسؤولية نقل أخبار المعارك والحروب الدائرة بين المسلمين والفرنج إلى المسلمين في أنحاء الدولة الإسلامية لكي يطمئنهم عن سير المعارك ونتائجها، ويرفع من روحهم القتالية، ولذا فإن صورة المعركة وما يتصل بها من عناصر ومقومات كانت في شعره الحربي موجهة في خدمة ذلك، إذ اتجه بها اتجاهًا إعلاميًا هادفًا يسعى من ورائه إلى تمجيد القائد المسلم وجيشه الذي خاض غمار المعارك والحروب، ونقل أنباء انتصاراتهم العظيمة وبثها في الناس.

ومن هنا، فقد اتخذ العماد من صورة جيش الفرنج وهزائمه المتلاحقة أمام المسلمين وسيلة للاستشارة والتحريض على مواجهتهم والتصدي لهم، وخاصة بعد أن أصبحت طرائقهم في القتال والمواجهة معروفة للمسلمين.

ولذا، فإن العماد حينما يتحدث عن الفرنج كان يركز بصورة واضحة على تصوير ضخامة جيشهم الذي يقاتلون به وكثرته العددية، وذلك على نحو ما نرى في قوله مصورًا إحدًا من معاركهم التي شهدوها مع نور الدين سنة (٥٦٨ هـ) (٦٢):

يا خِيَةَ الإفرنج حينَ تَجْمَعُوا      في حَيْرَةٍ وَأَتُوا إلى حَوْرانِ  
جاؤوا وظنُّهم يُعَجِّلُ رِبْحَهُم      فأعدتُّهم بِالْحِزْيِ والخُسْرانِ  
وظنُّوهم قَدْ أُيْقِنَتْ      للرُّعبِ بالإخفاقِ والخَفَقانِ

ويبدو لي أن العماد كان يسعى من وراء ذلك إلى إظهار خطر الفرنج في حجمه الحقيقي من ناحية، وتعظيم دور المسلمين في محاربتهم ودحرهم من ناحية أخرى. وربما أراد من وراء ذلك أن يؤكد لنا أن الجيش الإسلامي لم ينتصر على فئة قليلة أو جيش ضعيف. وإنما كان يقاتل جيشًا ضخماً مدرباً ويتنصر عليه.

هذا ومع أن الفرنج - كما نرى - كانوا يتعمدون إظهار كثرتهم وقوتهم في حروبهم مع المسلمين حتى يعملوا على إضعاف روحهم القتالية، إلا أن العماد في شعره الحربي لا يبدو حريصاً على تصويرهم إلا وهم يفرون أمام المسلمين من ميادين القتال. وكأني به يريد أن يقول إنهم مع ما يمتلكونه من طاقات بشرية هائلة أضعف من أن يواجهوا المسلمين ويدخلوا معهم في

معركة مباشرة. وربما كان يسعى إلى زوال هيبتهم من نفوس المسلمين، ويستحثهم على مواجهتهم والتصدّي لهم ومن الأمثلة الواضحة على ذلك قوله (٦٣):

ما في النَّصارى الغُتْمُ الا مَنْ لَهُ      في الصُّلْبِ بَانَ الكَسْرُ والصُّلْبَانِ  
وَلَوْ قَلْبُ شُجَاعِهِمْ فِي صَدْرِهِ      كَالسَّيْفِ يُرْعَدُ فِي يَمِينِ جَبَانِ  
فَارَوْا مِنَ الْفَوَارِ عِنْدَ فِرَارِهِمْ      بِالْغَوْرِ وَامْتَدُّوا إِلَى الْمَدَانِ

وفي قوله أيضاً حينما لقيهم صلاح الدين في دمياط سنة (٥٦٥ هـ) (٦٤):

لَا قَتْ غَوَاةَ الْفَرَنْجِ خَيْبَتُهَا      فَزَادَ مِنْ حَسْرَةٍ تَأْسُفُهَا  
فَرَّ فَرِيرُهَا وَأَزْعَجُهَا      نِدَاءُ دَاوِيَّا تَلْهُفُهَا

ومن أجل ذلك، فإن صورة اللقاء المباشر بين المسلمين والفرنج في شعر العماد الحربي جاءت عزيزة نادرة، ومنها قوله في معركة شهداها مع نور الدين سنة (٥٦٨ هـ) (٦٥):

خَلَّتْ عَلَيْهِمْ مِنْ جُنُودِكَ فِتْيَةٌ      لَمْ تَدِرْ غَيْرَ حَمِيَّةِ الْفِتْيَانِ  
زَخَرَتْ بِهِمْ أَمْوَاجُ أَجْكٍ فِي الْوَعَى      غَزَرًا وَطَمَّ بِهِمْ عُجَابُ طُمَانِ  
وَتَذَمُّوا مِنْ حَرِّ بَأْسِ مُحَمَّدٍ      وَتَهَيَّأُوا الْحَمَلَاتِ مِنْ عُثْمَانِ  
وَبَسِيفِ جُرْدِيكَ الْمَجْرَدِ غَوْدَرُوا      بِدِمَاءِ أَهْلِ الْغَدْرِ فِي عُذْرَانِ  
وَالْيَارِقِيَّةُ أَرْقَتْهُمْ فِي الدُّجَى      بِسِهَامِ كُلِّ حَنِيَّةٍ مِرْنَانِ

ومما سبق، نلاحظ أن العماد وهو يصور ساعة اللقاء بين المسلمين والفرنج كان يؤكد على تصوير شجاعة جند المسلمين وشدة نكايتهم بالفرنج من ناحية، وعلى شجاعة قائدهم وما

(٦٣) ديوان العماد، ص ٤١٣.

(٦٤) المصدر نفسه، ص ٣٠٩ - ٣١٠. والداوية: طائفة من الفرنج حبسوا أنفسهم لمحاربة المسلمين، انظر مفرج الكروب ٣٥/٢، والنجوم الزاهرة، ٣٣/٦.

(٦٥) ديوان العماد، ص ٤١٣ - ٤١٤، وطُمان: هو طُمان بن عبدالله النوري (ت ٣٨٥) خدم كل من نور الدين وصلاح الدين. النجوم الزاهرة، ١٠٩/٦، ومحمد، هو: محمد بن عبد الملك بن المقدم (ت ٥٨٣ هـ). النجوم ١٠٥/٦. وعثمان، هو عثمان بن الداية صاحب قلعة جعبر. النجوم، ٢٤/٦، وجرديك، هو: عبدالله النوري، كان من كبار قادة نور الدين وصلاح الدين، وقد رافق صلاح الدين الى مصر، وشهد معه قتل شاور. سيرة صلاح الدين، ص ٦١، والنجوم الزاهرة ١٣٣/٦.

الحقه بالفرنج من قتل ورعب من ناحية أخرى، وذلك على نحو ما نرى في قوله مخاطباً أسد الدين شيركوه<sup>(٦٦)</sup>:

لَقَدْ بَغَتْ فِتْنَةُ الْإِفْرَنْجِ فَانْتَصَفَتْ  
عَرَسَتْ فِي أَرْضٍ مَضْرٍ مِنْ جُسُومِهِمْ  
وَسَالَ بَحْرٌ نَجِيعٍ فِي مَقَامٍ وَعَى  
أَنْهَرَتْ مِنْهُمْ دِمَاءٌ بِالصَّعِيدِ جَرَى  
أَفْنَتْ سَيُوفُكَ مَنْ لَاقَتْ فَإِنْ تَرَكْتُ  
لَمْ يَنْجُ إِلَّا الَّذِي عَافَتْهُ مِنْ خَبَثٍ  
مِنْهَا بِإِقْدَامِكَ الْهِنْدِيَّةُ الْبَتْرُ  
أَشْجَارَ خَطِّ لَهَا مِنْ هَامِهِمْ ثَمَرُ  
بِهَ الْحَدِيدِ غَمَامٌ وَالِدَمُّ الْمَطَرُ  
مِنْهَا إِلَى النِّيلِ فِي وَادِيهِمْ نَهْرُ  
قَوْمًا فَهَمَّ نَقَرٌ مِنْ قَبْلِهَا نَقَرُوا  
وَحَشُّ الْفَلَا وَهُوَ لِلْمَحْذُورِ مُنْتَظَرُ

وفي قوله مصوراً لقاءهم مع المسلمين في حطين سنة (٥٨٣ هـ) حيث يقول مخاطباً صلاح الدين<sup>(٦٧)</sup>:

أَتَوْا شُكْسَ الْأَخْلَاقِ خُشْنًا فَلَيِّنَتْ  
طَرْدَتْهُمْ فِي الْمَلْتَقَى وَعَكَسَتْهُمْ  
فَكَيْفَ مَكَسَتْ الْمُشْرِكِينَ رُؤُوسَهُمْ  
كَسَرَتْهُمْ إِذْ صَحَّ عَزْمُكَ فِيهِمْ  
بِوَاقِعَةٍ رَجَّتْ بِهَا الْأَرْضُ جِيْشَهُمْ  
حُدُودُ الرِّقَاقِ الْخُشْنِ أَخْلَاقَهَا الشُّكْسَا  
مُجِيداً بِحُكْمِ الْعَزْمِ طَرْدَكَ وَالْعَكْسَا  
وَدَأْبُكَ فِي الْإِحْسَانِ أَنْ تَطْلُقَ الْمَكْسَا  
وَنَكَسَتْهُمْ إِذْ صَارَ سَهْمُهُمْ نَكْسَا  
دِمَاراً كَمَا بُسَّتْ جِبَالُهُمْ بَسَا

وحتى يحدث العماد استثارات معينة في نفوس المسلمين، ويستحثهم على مواجهة الفرنج والتصدي لهم، كان يتحدث عن عقيدتهم التي كانوا يقاتلون من أجلها، إذ كانوا يهدفون إلى القضاء على المسلمين وعقيدتهم<sup>(٦٨)</sup>. ولذا فهم أهل الكفر، وعصبة الشرك، وأمة النار، وعبد الصليب، كما يصورهم العماد في شعره الحربي، وذلك على نحو ما نرى في قوله مخاطباً أسد الدين شيركوه<sup>(٦٩)</sup>:

فِي خَلْقِ ذِي الشَّرْكِ مِنْ عَدُوِّ سَطَاكَ شَجَاً  
وَالْقَلْبُ فِي شَجَنِ وَالنَّفْسُ فِي شَجَبٍ

(٦٦) ديوان العماد، ص ١٧١.

(٦٧) المصدر نفسه، ص ٢٣٤. وانظر أيضاً، ص ١٦٠، ١٦٤، ٢٢٩، ٣٠٩، ٢٣٨، ٢٥٥، ٣٤٨، ٤٥١.

(٦٨) انظر حول ذلك: بيت المقدس، ص ١٣٣.

(٦٩) ديوان العماد، ص ٨٠. والشجب: الحزن والهلك (لسان العرب: شجب).

وقوله مهنتا صلاح الدين إثر فتح بيت المقدس (٧٠):

بعثت إمام أمة النار نحوها [فزار إمام أرناطها ذلك الحبسا]

وقوله مخاطباً تقي الدين عمر (٧١):

إذا ما بقي الذين صال تساقطت لأقدامه من عضبة الشرك أروس

ولذا، فإن صلاح الدين حينما حرر بيت المقدس من أيدي الفرنج، كان قد طهره من دنسهم ورجسهم، ونفى منه طواغيتهم ورموزها. وذلك واضح في قوله (٧٢):

نفى من القدس صلباناً كما نفيت من بيت مكة أزلأم وأنصاب

ومن الطريف هنا، أن العماد كان ينظر إلى دماء الفرنج على أنها مادة تطهير للأراضي الإسلامية والمقدسات من كفرهم ودنسهم، وهذا واضح في قوله مخاطباً صلاح الدين أيضاً إثر تحرير بيت المقدس (٧٣):

وطهرته من رجسهم بدمائهم فأذهبت بالرجس الذي أذهب الرجسا وفي قوله أيضاً (٧٤):

أفاد دم الأنجاس طهر سيفوكم وما يستفاد الطهر لولا التنجس

ومن هنا، فقد غدا الحديث عن هزائم الفرنج أمام المسلمين، وما أصابهم من قتل وسبي وإذلال، وما أصاب مدنها من تدمير وتخريب لحنائماً في شعر العماد الذي صور المعارك والحروب الدائرة بينهم وبين المسلمين، إذ رده وتغنى به معبراً عن سخريته منهم وشماتته بهم. ومن ذلك قوله مصوراً هزيمتهم أمام صلاح الدين (٧٥):

(٧٠) المصدر نفسه، ص ٢٣٦. وأرناط: هو صاحب قلعة الكرك الذي قتله صلاح الدين بحطين لتطاوله على الرسول (عليه السلام) واعتراضه حجاج المسلمين وقتلهم. انظر: سيرة صلاح الدين، ص ٧٧. والشر الثاني من البيت مختل الوزن.

(٧١) ديوان العماد، ص ٢٣٩.

(٧٢) المصدر نفسه، ص ٧٦.

(٧٣) المصدر نفسه، ص ٢٣٢.

(٧٤) المصدر نفسه، ص ٢٣٨.

(٧٥) المصدر نفسه، ص ١٩٢. والقشاعم: المسنة من النُور (لسان العرب: قشعم).

تركتَ مَصارِعَ للمُشركين      بطونُ القشاعيم فيها قُبُورُ  
تُزاجِمُ فُرسانيها الضارياتُ      فتصدمُ فيها النُسُورُ النُسُورُ

وقوله أيضا مصوراً هزيمتهم أمام نور الدين في إحدى معاركه التي شهدها معه سنة (٥٦٨ هـ) (٧٦):

لما رأى الدَّأويُّ راوُنداءهُ      ولَّى بَطَاطُونٍ بِغَيْرِ طَعَانٍ  
طلبَ الفِريرِيُّ الفِرارَ بِطُلْبِهِ      مُتَبَاعِداً مِنْ هُلُكِيَةِ المُتَدَانِي  
والهَفْزِيُّ مُذْ هَانَ فَرُّ مُؤَمِّلَا      لِسَلَامَةِ وَالْهُونِ شَأْنُ الشَّانِي  
بَارُوا فَبَارُونِيهِمْ بِفِنَائِهِ      مُودٍ وَسِيدِهِمْ أُسِيرُ عَانٍ  
أَخْلَوْا بِلَادَهُمْ فَحَلَّ بِأَهْلِهَا      مِنْكَ الْغَدَاةُ طَوَارِقُ الْحِذْثَانِ  
أَنْهَضَتْ حِينَ خَلَّتْ إِلَيْهَا عَسْكَرَا      أَخْلَى قَوْعُهَا مِنَ الْبُنْيَانِ  
ومَلَأَتْ بِالنَّيْرَانِ أَرْبَعَ أَهْلِهَا      فَتَعَجَّلُوا الْإِحْرَاقَ بِالنَّيْرَانِ

وقد كانت نغمة السخرية والشماتة بالفرنج تتعالى وتزايد بصورة واضحة في شعر العماد، وهو يتحدث عن ملوكهم العظام وقادتهم الشجعان الذين وقعوا أسرى في أيدي المسلمين إثر هزيمتهم بحطين. وذلك على نحو ما نرى في قوله (٧٧):

تُقَادُ بِدَأْمَاءِ الدَّمَاءِ مُلُوكُهُمْ      أُسَارَى كَسُفْنِ الْيَمِّ نَطَّتْ بِهَا الْقُلُوسَا  
سَبَايَا بِلَادِ اللَّهِ مَمْلُوءَةٌ بِهَا      وَقَدْ شُرَيْتُ بِخَسَا وَقَدْ عُرِضَتْ نَخْسَا  
يُطَافُ بِهَا الْأَسْوَاقُ لَا رَاغِبَ لَهَا      لِكَثْرَتِهَا كَمْ كَثْرَةُ تَوَجُّبِ الْوَكُوسَا؟!

وعلى ما يبدو، أن مناظر قتل الفرنج والتنكيل بهم كانت تروق العماد وتعجبه، إذ كان يراها جزاءً وفاقاً لجرائمهم التي ارتكبوها بحق المسلمين ومقدساتهم، ولذا فقد كررها في شعره في غير مرة. ومن ذلك تصويره مقتل أرناط صاحب الكرك الذي نكّل بالمسلمين، وحاول الاعتداء على الأماكن الإسلامية المقدسة بمكة والمدينة حيث يقول (٧٨):

(٧٦) المصدر نفسه، ص ٤١٥-٤١٦. الطلب: استعملت بمصر والشام أيام صلاح الدين، وتعني الأمير الذي يقود مثنى فارس، ثم أطلقت فيما بعد على الكتيبة من الجيش. انظر: المقرئ (أحمد بن علي) ت ١٤٤١/٨٤٥ م، السلوك لمعرفة دول الملوك، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٤ م، ج ١/٢٤٨.

(٧٧) ديوان العماد، ص ٢٣٥. والدأماء: البحر، والقلس: الحبل الضخم (لسان العرب: دام، قلس).

(٧٨) المصدر نفسه، ص ٢٣٥.



شكا يَيساً رأسُ البرنس الذي به  
حسا دمه ماضي الغرار لَقْدَرِهِ  
فلله ما أهدى يدأ فتكت به  
نَسَفَتْ به رأسُ البرنسِ بضربةٍ  
تبوَّغَ في أوداجِهِ دَمٌ بَغِيهِ  
تَنَدَّى حُسامٌ حاسِمٌ ذَلِكَ اليَيسَا  
وما كان لولا غَدْرُهُ دُمُهُ يُحْسَى  
وأطهرَ سَيْفًا مُعْدِمًا رِجْسَهُ النَّجْسَا  
فأشبهَ رأسي رأسَهُ العِهنَ والبُرْسَا  
فصالَ عليه السَّيفُ يلحسُهُ لَحْسَا

ويعصور العمداء مقتل أرناط صاحب الكرك في قصيدة أخرى يعبر بها عن فرحته وشماتته بما أصابه فيقول (٧٩):

يا يومَ جَطِينِ والأبطالِ عابِسَةٍ  
رأيتُ فيه عظيمَ الكُفرِ مُتَقَرِّراً  
يا طهرَ سَيْفٍ برى رأسَ البرنسِ فَقَدْ  
وغاصَ إذ طارَ ذاكَ الرأسُ في دَمِهِ  
ما زالَ يغطسُ مزكوماً بَغْدَرَتِهِ  
عرى ظبَاهُ مِنَ الأعمادِ مُهْرَقَةً  
مَنْ سَيْفُهُ في دماءِ القومِ مُنْغَمِسٌ  
وبالعجاجةِ وَجْهَ الشمسِ قد عَيَسَا  
مُعَقِّراً خُدَّهُ والأنفُ قد تَعَسَا  
أصابَ أعظمَ مَنْ بالشُّركِ قد نَجَسَا  
كأنَّهُ ضِفْدَعٌ في الماءِ قد عَطَسَا  
والقتلُ تَشْمِيتٌ مَنْ بِالْغَدْرِ قد عَطَسَا  
أدماً من الشُّركِ رَدَّاهَا بِهِ وَكَسَا  
مَنْ كُلٌّ مَنْ لَمْ يَزَلْ في الكُفْرِ مُنْغَمِسَا

ولا يكتفي العمداء بتصوير ما حلَّ بالفرنج من هزائم مادية ودينية، وإنما يحاول أن يتسلل إلى نفوسهم المهزومة المحزونة، لكي يصف لنا ما أصابها من ذل وهوان إثر هزائمهم المتلاحقة أمام المسلمين. ومن ذلك قوله مخاطباً نور الدين (٨٠):

رَأَحُوا فَبَاتُوا تَحْتَ كُلِّ مَذْلَةٍ  
وَلَوْا وَقَلْبٌ شُجَاعُهُمْ فِي صَدْرِهِ  
وَلَّى وَجُوهُهُمْ سَوَادٌ وَجُوهُهُمْ  
وقوله أيضاً (٨١):

عَادُوا وَحِينَ رَأَوْا خَرَابَ بَيْتِهِمْ  
بَاؤُوا بِأَحْزَانٍ وَخَاضُوا هَوْلَهَا  
يَتَسُّوا مِنَ الْأَوْطَارِ وَالْأَوْطَانِ  
مِمَّا لَقُوا بِمَخَاضَةِ الْأَحْزَانِ

(٧٩) المصدر نفسه، ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٨٠) ديوان العمداء، ص ٤١٣.

(٨١) المصدر نفسه، ص ٤١٦. ومخاضة الأحزان: موقع حصين يقع بين طبرية وصفد بفلسطين من ناحية، وبينها وبين دمشق من ناحية أخرى. انظر كثر الدرر، ٦٤/٧ حاشية (٢).

وبالمقابل كان العماد يصور لنا أصداء المعارك والانتصارات وما خلفته في نفوس المسلمين، فيقول (٨٢):

وقد استفادَ المشركون تعازياً      والمسلمون تهدياً بتَهَانِ

ومما سبق، يتبين لنا أن العماد في شعره الحربي كان يعنى بنتيجة المعركة وأبعادها أكثر من عنايته بنقل أحداثها وتفصيلاتها الدقيقة، إذ لا يضعنا في جوها العام، ولا يصف لنا معاناة المقاتلين من الطرفين. وإنما كان يحرص على تصوير الانتصار وإعلانه على المسلمين. ولذا فقد جاء وصفه للمعركة وحديثه عنها أشبه ما يكون ببيانات إعلامية عاطفية يسعى من ورائها إلى تمجيد القيادة الإسلامية والإشادة بما قامت به في مواجهة الغزاة من ناحية، وإلى إدخال المسرة في نفوس المسلمين وتطمينهم عن سير المعارك والحروب من ناحية أخرى، مؤكداً لهم انهيار عزائم الفرنج وضعف مقدرتهم القتالية حتى ينتزع هيبته من نفوس المسلمين، ويستحثهم على مواجهتهم واستعادة البلاد من أيديهم.

ولذا، فقد جاءت المعركة في شعره على أنها ماثرة من مآثر القائد المسلم (الممدوح) لا هدفاً مقصوداً لذاته، إذ كان محوراً أساسياً في القصيدة، وكل ما يذكر فيها من عناصر ومقومات كان يأتي لإتمام معالم شخصيته وإظهار مقدرته القتالية (٨٣).

ومن هنا، فإن العماد كان ينقل المدح الجماعي إلى مدح فردي، وخاصة حينما كان يخص بطله بالصمود والجرأة والإقدام وسط المخاطر والمخاوف دون جنده، وذلك على نحو ما نرى في قوله مخاطباً نور الدين (٨٤):

كم وقعة لك في الفرنج حديثها      قد سار في الآفاق والبُلْدَانِ  
كم مُصْعَبٍ عَسْرُ المَقَادَةِ قُدَّتُهُ      نَحْوَ الرَّدَى بِخَزَائِمِ الخُلَانِ  
قَمَصَتْ قَوْمَصَهُمْ رِداءً مِنْ رَدَى      وَقَرْنَتْ رَأْسَ بِرْنِسِهِم بِسِنَانِ

(٨٢) ديوان العماد، ص ٤١٦.

(٨٣) انظر: ديوان العماد، ص ١٦٤، ١٧١، ١٩٢، ٢٣٤، ٤١١.

(٨٤) المصدر نفسه، ص ٤١١. والمُصْعَب: الفحل الذي لم يحسه حبل، ولم يركب ظهره. وأما الخَزَائِم، فهي؛ جمع خُزامة، وهي حلقة من شعر تجعل في أحد جانبي منخري البعير. (لسان العرب: صعب، خزم). والقومص: لفظة لاتينية (Comes) وتعني الأمير. وأما البرنس، فهو: لقب كل عضو من أعضاء الأسر المالكة. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج ١/ ٧٣.

وقوله مخاطباً صلاح الدين<sup>(٨٥)</sup>:

وكمُ فُللتُ جُموعَ الفرنجِ      بحدِ اعتزامِ شباهِ طريرِ  
بضربِ تحذفٍ مِنْه الرؤوسُ      وطعنِ تخسّفٍ مِنْه النُحُورِ  
وغادرتُ غادرَهُم بالعِراءِ      ومِنْ دَمِهِ كلَّ قطرٍ غديرِ

ومهما يكن من أمر، فإنّ التأكيد على البطل ودوره الذي قام به في مواجهة الفرنج كان ظاهرة عامة في أدب هذه الفترة، وخاصة في مرحلتي المواجهة والتحرير اللتين تزعمهما كلّ من الزنكيين والأيوبيين. ولعلّ ذلك مرده إلى أنّ الأمة الإسلامية بمصر والشام قد عانت من تعدد حكامها المحليين واختلاف كلمتهم وأهوائهم حتى وجدت ضالتها المشودة في نور الدين وصلاح الدين اللذين عملا على توحيد صفوفها ضد عدوها، واستعادة أراضيها المغتصبة من أيدي أعدائها، وربما لأنها استعادت قوتها وثقتها بنفسها إثر ما حققته من انتصارات تحت قيادة هذين البطلين اللذين قلبا موازين القوى ورجّحا كفة المسلمين على كفة الفرنج. ولكننا مع ذلك كله لا نستطيع أن ننكر دور الجماعة المسلمة التي وقفت إلى جانبها وأمدتها بكلّ ما لديها من طاقات حتى حققا ما حققاه من انتصارات.

ثانيا : الأداء الفني :

١ - الألفاظ والأساليب :

أدرك العماد بحكم صلته الوثيقة بأبطال الجهاد الإسلامي<sup>(٨٦)</sup> عظم المسؤولية الملقاة على عاتقه في نقل أخبار المعارك والحروب الدائرة ما بين المسلمين والفرنج إلى المسلمين في أنحاء الدولة الإسلامية لكي يطمئنهم عما حققه المسلمون في ميادين القتال من ناحية، ويستحثهم على القتال والمواجهة من ناحية أخرى. مثلما أدرك الكلمة المعبرة الموحية في التأثير وإلهاب المشاعر وإشعال الحماس في النفوس.

ولذا، فقد اهتم العماد في شعره الحربي بألفاظه اهتماما خاصاً، فكان يحرص على تخيّر الألفاظ والعبارات الملائمة للتعبير عن معانيه وأفكاره التي تعتمل في نفسه، ويحرص على

(٨٥) ديوان العماد، ص ١٩٢، وانظر أيضاً، ص ١٦٠، ١٦٤، ١٩٢، ٢٣٨، ٣٠٩، ٢٣٤، ٢٤٨، ٤٥١.

(٨٦) إذ كان مشرفاً على ديوان الإنشاء في دولة نور الدين، وكاتباً للسر ومسؤولاً عن ديوان الاستيفاء في دولة صلاح الدين أيضاً. انظر مقدمة ديوان العماد، ص ٦، ٧.

وضعها في مكانها اللائق بها، لكي تعبر عما يريد تعبيراً دقيقاً موحياً، وخاصة بعد أن يشحنها بعاطفته القوية وأحاسيسه الصادقة. ذلك لأنّ (الأداء الفني الجميل أساسه الدقة في اختيار الكلمة ووضعها في بيئتها وامتزاجها مع معناها، إذ ليس هو في مجموعة الا طائفة من الكلمات المؤتلفة المعبرة)<sup>(٨٧)</sup>. ومن الأمثلة الواضحة على ذلك قوله في وصف جيش الأعداء<sup>(٨٨)</sup>:

جَحْرُ كَبْحَرٍ دَارِعُو فَرَسَانِهِ      حَيَاتُهُ وَزَعِيمُهُمْ يَمْسَاخُهُ  
شَحْنَاؤُهُ شَحْنَتْ جَوَارِي فُلُكِهِ      جَوْرًا وَمَالَ بَهْلِكِهِ مَلَاخُهُ  
عَدِمُوا الْفَلَاخَ مِنَ الرِّجَالِ فَجَاءَهُمْ      مِنْ كُلِّ صَوْبٍ مُكْرَهَا فَلَاحُهُ  
وقوله في نور الدين زنكي مصوراً إحدى معاركه<sup>(٨٩)</sup>:

سَطْوَةٌ زَلَزَلَتْ بَسُكَانِهَا الْأَر      ضَ وَهَدَّتْ قَوَاعِدَ الْأَطْوَادِ  
أَخَذَتْهُمْ بِالْحَقِّ رَجْفَةً بَأْسٍ      تَرَكْتَهُمْ صَرَعَى صُرُوفِ الْعَوَادِ  
خَفَضَتْ فِي قِلَاعِهَا كُلَّ عَالٍ      وَأَعَادَتْ قِلَاعَهَا كَالرَّهَادِ  
وقوله أيضاً مصوراً هزيمة الفرنج بحطّين<sup>(٩٠)</sup>:

كَسَرْتَهُمْ إِذْ صَحَّ عَزْمُكَ فِيهِمْ      وَنَكَسْتَهُمْ إِذْ صَارَ سَهْمُهُمْ نَكْسًا  
بَوَاقِعَةٍ رَجَّتْ بِهَا الْأَرْضُ جِيْشَهُمْ      دَمَارًا كَمَا بُسَّتْ جِبَاهُهُمْ بَسًا

ولما كانت العلاقة ما بين الألفاظ والموضوعات التي تستخدم للتعبير عنها من ناحية، وبين الألفاظ ونفسية الأديب من ناحية أخرى قوية<sup>(٩١)</sup>، فإنّ الفاظ العماد في شعره الحربي قد اتسمت بالجزالة وقوة الجرس، وخاصة حينما كان يتحدث عن البطل المسلم وجيشه، ويصف

(٨٧) عبدالحكيم بليغ، النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، مكتبة وهبة، القاهرة، (ط٣) ١٩٧٥م، ص ٢١٤.

(٨٨) ديوان العماد، ص ١٠٩.

(٨٩) المصدر نفسه، ص ١٢٦.

(٩٠) المصدر نفسه، ص ٢٣٤.

(٩١) انظر حول ذلك: الجرجاني (عبدالعزیز ت ٣٦٦/٩٧٦م) الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق عماد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة البابي الحلبي، مصر (ط١) ١٩٦٩م، ص ٢٤، وابن الأثير (ضياء الدين ت ٦٣٧/١٢٣٩م) المثل السائر، تحقيق أحمد الحوفي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، (ط١) ١٩٥٩م، ق١/٢٤٠، وأحمد الشايب، الأسلوب، النهضة المصرية، القاهرة، (ط١) ١٩٦٦م، ص ٨٤، ٩٠، ١٩٤.

المعركة والفتح، ويصور الفرنج وجيشهم، إذ كان متأثراً بالأحداث منفعلاً بها أيما انفعال. ولكن هذا ليس شأنه في جميع شعره الحربي، إذ كان - أحياناً - يراوح في أسلوبه بين الجزالة والركة، وخاصة في مقدمات قصائده القدسية<sup>(٩٢)</sup>، وفي وصف المعارك وما يتصل بها، إذ كان ينجح إلى استعمال ألفاظ الغزل والنسيب ويمزج بينها وبين ما يتحدث عنه مزجاً موفقاً، وذلك على نحو ما نرى في قوله<sup>(٩٣)</sup>:

وعلى غناء الشرفية في الطلى      والهام رقص عوامل المرائن  
وفي قوله<sup>(٩٤)</sup>:

وربُّ مُعْتَرِكٍ رَحَبَ الفضاء به      أضْحَى على مسعريه ضيقاً لقصا  
لما انتشى الهام من كأس النجيع به      غنى المهند والخطي قد رقصا  
وفي قوله<sup>(٩٥)</sup>:

تهزُّ قُودُ السُّمْرِ للفتكِ سحرها      وتُشهر من أجفانها البيض بيضها

ومما يؤكد لنا اهتمام العماد بألفاظه إكثاره من استخدام المحسنات اللفظية والمعنوية في شعره، وذلك حتى يعمل على تلوين أسلوبه ويكسبه رونقاً وجمالاً. ولذا فإنه يتعذر علينا أن نجد نصاً من نصوصه الشعرية التي نظمها في حروب المسلمين مع الفرنج يخلو من لون من ألوان البديع<sup>(٩٦)</sup> الذي كان مقياساً عاماً من مقياس عصره الفنية، وقد كان العماد معجباً به أيما اعجاب<sup>(٩٧)</sup>:

(٩٢) انظر ديوان العماد، ص ٢٢٨، ٢٣٠.

(٩٣) ديوان العماد، ص ٤١٢.

(٩٤) المصدر نفسه، ص ٢٥٥.

(٩٥) المصدر نفسه، ص ٢٦٩.

(٩٦) ففي قصيدته اللتين أنشأهما يحطين وفتح بيت المقدس - على سبيل المثال - أكثر من استخدام السجع والجناس والطباق والمقابلة، ورد العجز على الصدر، وغيرها من فنون البديع. انظر ديوانه، ص ٢٢٨، ٢٣٥، وللمزيد أيضاً انظر، ص ١٦٠، ١٦٤، ١٧٠، ١٨٥، ١٨٢، ٢٢٨، ٢٥١، ٢٥٥.

(٩٧) انظر: العماد الأصفهاني، خريدة القصر (قسم شعراء العراق) تحقيق محمد بهجت الأثري، ج ١/٦٤، وبيت المقدس، ص ٣٠٣ - ٣٠٥.

ومن هنا، فقد كان العماد يُعنى بالفاظه من حيث رسمها وصوتها وإيقاعها، وقد قاده ذلك إلى البحث عن نظائرها المختلفة. ولذا، فقد طُفح شعره بالجناس الاشتقاقي الذي أربى على غيره من صور الجناس الأخرى. ومنه قوله مخاطباً أسد الدين شيركوه، وذلك إذ يقول<sup>(٩٨)</sup>:

وما غَضِبْتَ لدين الله مُتَقِيماً      ألا لنيلِ رِضَا الرَّحْمَنِ بِالْغَضَبِ  
وأنتَ مَنْ وَقَعْتَ فِي الْكُفْرِ هَيْبَتُهُ      وفي ذَوِيهِ وَقُوعِ النَّارِ فِي الْحَطَبِ  
وقوله مصوراً مَصِيرَ الْفَرَنْجِ بِحَطِّين<sup>(٩٩)</sup>:

بُطُونُ ذُنَابِ الْأَرْضِ صَارَتْ قُبُورَهُمْ      ولم تَرْضَ أَرْضٌ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ رَمْسًا  
وقوله أيضاً<sup>(١٠٠)</sup>:

أَفَنَتِ سَيْوْفُكَ مَنْ لَاقَتْ فَإِنْ تَرَكَتْ      قوماً فهم نَفَرٌ مِنْ قَبْلِهَا نَفَرُوا  
ولم يقتصر اهتمام العماد على ذلك، وإنما كان يحرص على ترديد حروف بعينها في ألفاظ جملة، لكي يحدث فيها تناغماً صوتياً متناسقاً، ويضفي عليها جرساً موسيقياً خاصاً. ومن الأمثلة الواضحة على ذلك قوله<sup>(١٠١)</sup>:

في كُلِّ دَارٍ مِنَ الْإِفْرَنْجِ نَادِبَةٌ      بما ذَهاهُمُ فَقَدَ بَانُوا عَلَى نَدَبِ  
وقوله<sup>(١٠٢)</sup>:

و قد سِرَتْ فِي الْإِسْلَامِ أَحْسَنَ سِيرَةٍ      مأثُورَةٍ وَسَلَكْتَ أَوْضَحَ مَنَهِجِ  
وقوله<sup>(١٠٣)</sup>:

فَهُمْ لِحَرْثٍ لَا لِحَرْبٍ حِزْبُهُمْ      أَيْشِيرُ قُرْحاً مَنْ يُشَارُ قَرَا حُهُ؟

(٩٨) ديوان العماد، ص ٨١.

(٩٩) المصدر نفسه، ص ٢٣٤.

(١٠٠) المصدر نفسه، ص ١٧١.

(١٠١) المصدر نفسه، ص ٨٠.

(١٠٢) المصدر نفسه، ص ١٠٣.

(١٠٣) ديوان العماد، ص ١٠٩.

وقوله (١٠٤):

حَمَى حَوْزَةَ الدِّينِ الْحَنِيفِ بِحَوْزِهِ مِنْ خَالِقِ الْحُسْنَى وَمِنْ خَلْقِهِ الشُّكْرَا

ويهتم العماد بعباراته أيضا، فهو يحرص على موسيقاها الداخلية، إذ كان يعتمد إلى إقامة التعادل والتوازن بينها، وذلك بتقسيمها في البيت الواحد إلى أجزاء قصيرة متعادلة مترابطة، حتى يعمل على زيادة الدفقة الموسيقية فيها، ويكسبها رنيناً خاصاً تستريح له النفس، ومن ذلك قوله (١٠٥):

إِفْخَرِ فَإِنَّ مُلُوكَ الْأَرْضِ أَذْهَلَهُمْ مَا قَدْ فَعَلْتَ فَكُلُّ فَيْكٍ مُفْتَكِرُ  
سَهَرْتَ إِذْ قَدَّوْا بِلَ هُجَّتْ إِذْ سَكُنُوا وَصَلْتَ إِذْ جَبُنُوا بِلَ طُلْتَ إِذْ قَصُرُوا

وقوله (١٠٦):

رَأَيْتُ صِلَاحَ الدِّينِ أَفْضَلَ مَنْ غَدَا وَأَشْرَفَ مَنْ أَصْحَى وَأَكْرَمَ مَنْ أَسَى  
سَجِيَّتُهُ الْحُسْنَى وَشِمَّتُهُ الرُّضَا وَبَطْشَتُهُ الْكُبْرَى وَعَزَمَتُهُ الْقَعْسَا

هذا، ومع أن شعر العماد الذي صَوَّرَ المعارك والحروب الدائرة بين المسلمين والفرنج يتميز بالجزالة والفخامة في معظمه، وباستخدام المحسنات اللفظية والبديعية وتكليفها، إلا أنه مع ذلك كله جاء واضحا، إذ كان العماد - وهو يتحدث عن المعركة وما يتصل بها - ينجح أحيانا إلى استعمال الألفاظ الواضحة ذات الإيقاع الموسيقي الجميل التي تعبر عن معانيه تعبيرا دقيقا. وقد أعانه على ذلك حسه المرفه، وحرارة عاطفته، وثقافته الواسعة التي جعلت اللفظ مطواعا بين يديه.

وقد نَوَّعَ العماد في أساليبه الشعرية في شعره الحربي حتى يجلي شخصية بطله المسلم وجيشه من ناحية، ويظهر الخطر الفرنجي في حجمه الحقيقي من ناحية أخرى. ولذا فقد اتسم أسلوبه بسمات عديدة نجد منها: المبالغة، والتكرار، واستخدام الألفاظ والمصطلحات الإسلامية والنصرانية، والجميل الإنشائية وغيرها.

(١٠٤) المصدر نفسه، ص ١٦٠. وانظر أيضا، ص ٧٩، ١٠٣، ١٠٩، ١١١، ١٣٨، ١٩٢، ٢٢٩، ٢٣٤، ٢٣٥، ٤١١، ٤١٦، وغيرها.

(١٠٥) المصدر نفسه، ص ١٧٠.

(١٠٦) المصدر نفسه، ص ٢٣١. والقعسا: العالية الثابتة (لسان العرب: قعس).

أما المبالغة، فقد تجلّت في معظم معاني العماد وصوره التي عبّر بها عما يعتل في نفسه من مشاعر وأحاسيس، إذ كان يبالغ في كلّ شيء يصفه أو يتحدّث عنه، وخاصّة حينما كان يتحدّث عن البطل المسلم ويصف جيشه، أو حينما كان يصف الفرنج وما أصابهم من خوف إثر هزائمهم المتلاحقة أمام المسلمين، أو حينما كان يصف المعركة ويتحدّث عنها. وهي فيما أرى استشارات عاطفية مقصودة جاء بها العماد، لكي يَصوّر لنا أصداء المعارك والانتصارات في نفسه ونفوس المسلمين، ويستحثهم على مواجهة الغزاة والتصديّ لهم. ومن الأمثلة الواضحة على ذلك، قوله مخاطباً أسد الدين شيركوه قائد جيوش نور الدين<sup>(١٠٧)</sup>:

أَنْتَ الَّذِي هُوَ فَرْدٌ فِي بَسَالَتِهِ      وَالَّذِينَ مِنْ عَزَمِهِ فِي جَحْفَلٍ لَجِبِ  
وقوله مصوراً رعب الفرنج<sup>(١٠٨)</sup>:

كَانُوا مِنَ الرُّعْبِ مَوْتٌ فِي جُلُودِهِمْ      وَحِينَ أَمْتَهُمْ مِنْ خَوْفِهِمْ نُشِرُوا  
وقوله أيضاً<sup>(١٠٩)</sup>:

وَسَالَ بَحْرٌ نَجِيعٌ فِي مَقَامٍ وَغَى      بِهِ الْحَدِيدُ غَمَامٌ وَالِدَمُّ الْمَطَرُ  
وقوله<sup>(١١٠)</sup>:

جَيْشُ الْفَرَنْجِ إِذَا لَاقَى سَوَابِقَهُمْ      كَأَنَّهُ جَبَلٌ بِالرَّيْحِ مَنْسُوفٌ

وأما التكرار، فقد أكثر منه العماد في شعره، إذ كان يعتمد إلى تقليب الفكرة الواحدة في قوالب لفظية متعددة حتى يوصلها إلى القارئ واضحة جلية من ناحية، ويؤكد المعنى الذي يريد من ناحية أخرى. وكأني به قد أحسّ أنّ الكلمة عاجزة عن التعبير عما في نفسه من مشاعر وأحاسيس لما حققه المسلمون من انتصارات على الفرنج. وربّما دفعه إلى ذلك حبّه الشديد للمجانسة والتماثل. ومن الأمثلة الواضحة على ذلك قوله مخاطباً صلاح الدين إثر فتح بيت المقدس مكرراً لفظي القدس والرّجز غير مرة<sup>(١١١)</sup>:

(١٠٧) ديوان العماد، ص ٨٠.

(١٠٨) المصدر نفسه، ص ١٧٢.

(١٠٩) المصدر نفسه، ص ١٧١، وانظر أيضاً، ص ١٣٣، ٢٣٥، ٢٣٩. والنجيع: دم الجوف خاصّة (لسان العرب: نجع).

(١١٠) ديوان العماد، ص ٢٩٧.

(١١١) المصدر نفسه، ص ٢٣٢.



فَلا يَسْتَحِقُّ الْقُدْسَ غَيْرُكَ فِي الْوَرَى      فَأَنْتَ الَّذِي مِنْ دُونِهِمْ فَتَحَ الْقُدْسَا  
وَمِنْ قَبْلِ فَتَحِ الْقُدْسِ كُنْتُ مُقَدَّسًا      فَلَإِ عَدِمْتُ أَخْلَاقَكَ الظُّهْرَ وَالْقُدْسَا  
وَطَهَّرْتُهُ مِنْ رِجْسِهِمْ بِدِمَائِهِمْ      فَأَذْهَبْتُ بِالرَّجْسِ الَّذِي أَذْهَبَ الرَّجْسَا

وقوله أيضا في القصيدة نفسها مكرراً لفظة (الأرض) غير مرة، وذلك إذ يقول (١١٢) :

بِوَأَقَعَةٍ رَجَّتْ بِهَا الْأَرْضُ جَيْشَهُمْ      دِمَارًا كَمَا بُسَّتْ جِبَالُهُمْ بِسًا  
بَطُونٌ ذُنَابِ الْأَرْضِ صَارَتْ قُبُورُهُمْ      وَلَمْ تَرْضَ أَرْضٌ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ رَمْسَا

ولم يقتصر التكرار في شعر العماد الحربي على الألفاظ، وإنما تجاوز ذلك إلى المعاني أيضا .  
ومنه قوله مصوراً ربع الفرنج (١١٣) :

أَمَانَهَا رُغْبُكَ فِي حُصُونِهَا      كَأَنَّهَا حُصُونُهَا حُودُهَا  
وقوله (١١٤) :

فِي نَفْسِ الْكُفَّارِ رُغْبُكَ قَدْ جَدَّ      لَ بَصْدَعِ الْأَكْبَادِ وَالْأَفْلَادِ  
ومنه أيضا قوله مشيداً بنور الدين (١١٥) :

وَلَمْ تَغْرِ الْكُفْرَ عَادَاتُهُ      لَا لَثَمَ تَغْرِ الْغَادَةِ الرُّودِ  
وقوله (١١٦) :

وَدَائِبُهُ لَمْ تُغْرِ الْكُفْرَ لَا      لَثَمَ تُغْرِ نَاقِعِ بَرُودِهَا

ومن المظاهر الاسلوبية الأخرى التي تجلّت في شعر العماد الحربي استخدام الألفاظ والمصطلحات الإسلامية والنصرانية التي اقتضتها طبيعة الصراع القائم بين المسلمين والفرنج .

(١١٢) ديوان العماد، ص ٢٣٤ .

(١١٣) المصدر نفسه، ص ١٤٥ .

(١١٤) المصدر نفسه، ص ١٤٧، ١٧٢ .

(١١٥) المصدر نفسه، ص ١٣٨ . الغادة الرود: الفتاة الحسناء .

(١١٦) ديوان العماد، ص ١٤٤ . وانظر أيضا، ص ٧٥، ٢٢٩، ٢٣٥، ٢٤٢، ٢٤٩ .

وذلك على نحو ما نرى في قوله مخاطباً صلاح الدين إثر فتح بيت المقدس<sup>(١١٧)</sup>:

وعادتْ بيْتُ الله أَحكامَ دينِهِ      فلا بَطْرَكَأُ أَبْقِيَتْ فِيهَا ولا قِسْماً  
وقد شاعَ في الأفاقِ عَنْكَ بَشارةُ      بأنَّ آذانَ القُدُسِ قد أَبْطَلَ النُقْسا  
جَرى بِالَّذي تَهوى القَضاءُ وظاهَرَتْ      ملائِكَةُ الرَّحْمَنِ أَجنادُكَ الحُمْسا  
وفي قوله<sup>(١١٨)</sup>:

بَعَثَتْ إِمامَ أُمّةِ النَّارِ نَحوَهَا      [فزارَ إِمامَ أَرْناطِها ذلكَ الحِسا]  
وفي قوله في صلاح الدّين أيضاً<sup>(١١٩)</sup>:

أَحيا الهُدَى وأَماتَ الشُّرْكَ صارِئُهُ      لَقَدْ تَحلَّى الهُدَى والشُّرْكَ مَنجَبُ  
نَفى مِنَ القُدُسِ صُلْباناً كَما نُفِيتْ      مِنْ بَيْتِ مَكّةَ أَزْلامَ وَأَنْصَبُ

وحينما كان العماد يستحث بطله على القتال والمواجهة من أجل استنقاذ المقدسات الإسلامية المغتصبة، كان يلجأ إلى استخدام الجمل الإنشائية. ولذا فقد غلب على شعره الأسلوب الخطابي القائم على التوجيه والإرشاد. ومن الأمثلة الواضحة على ذلك قوله مخاطباً نور الدين زنكي<sup>(١٢٠)</sup>:

فانْهَدْ إلى البَيْتِ المُقَدَّسِ غَازِياً      وعلى طَرائِلسٍ ونابُلسٍ عَجِ  
وقوله مخاطباً صلاح الدين الأيوبي<sup>(١٢١)</sup>:

نُهوْضاً إلى القُدُسِ يَشْفِي الغَلِيلَ      بَفَتْحِ الفُتُوحِ وماذا عَسِيرُ؟

## ٢ - الخيال والصور الشعرية:

الخيال هو: (الأداة اللازمة لإثارة العواطف وإشعالها، وهو الذي يملك به الشاعر

(١١٧) المصدر نفسه، ص ٢٣٢. والحُمس: جمع أحمر، وهو: الشجاع الصُّلب المشد. (لسان العرب: حمس).

(١١٨) ديوان العماد، ص ٢٣٦. الشطر الثاني غتل الوزن.

(١١٩) المصدر نفسه، ص ٧٥-٧٦.

(١٢٠) المصدر نفسه، ص ١٠٣.

(١٢١) المصدر نفسه، ص ١٩٤.

والأديب نفس القارئ والسماع ، ويجعلها تتعجب وتطرب من مشاهد الصور<sup>(١٢٢)</sup>. ذلك لأن الصورة من أهم الوسائل التي تمكن الشاعر من التعبير عن عاطفته وتجربته الشعرية ، ولذا فإن الناظر فيما وصل اليها من شعر العماد الذي صوّر المعارك والحروب الدائرة بين المسلمين والفرنج ، يرى اهتمامه بالصور الشعرية ، وخاصة حينما كان يتحدث عن البطل ويصور المعركة والعدو المهزوم<sup>(١٢٣)</sup>؛ وذلك ، لكي يعبر عما يعمل في نفسه من مشاعر وأحاسيس ، وينقل للقارئ ما شاهده في ميادين القتال أو سمع عنه ، ولذا ، فقد غدا شعره الحربي حافلاً بالصور الفنية التي أبرزت معانيه ودقة تصويره.

وقد اتكأ العماد في رسم صوره الشعرية على البيان بصوره المختلفة من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز ، لما لهذه الأنواع من قدرة على التصوير والإيضاح من ناحية ، ولأن الصورة لا تحقق غايتها المرجوة إلا اذا تألفت الصور الجزئية معا لكي تكون الصورة الكلية التي هي التجربة الشعرية ، وتنقلها لنا نقلاً فنياً صادقاً واقعياً<sup>(١٢٤)</sup>.

وقد ركب العماد من صور البيان المختلفة صوراً كلية متضامة متناسقة استوحاها من مصادر متعددة ، فهي مستوحاة من أجواء الحروب وأحداثها ، ولذا فقد اتسمت بالواقعية ، إذ هي مستمدة من واقع حياة البطل ومعاركه وجيشه وفتوحاته . وذلك على نحو ما نرى في قوله في معركة شهدا مع نور الدين<sup>(١٢٥)</sup>:

وكأن بين النّقع لمع حديدها	نار تآلق من خلال دُخان
في مآزق ورّد السوريد مكفل	فيه بري الصّارم الظّمان
غطى العجاج به نجوم سمائه	لتنوب عنها أنجم الخرصان
يمتأح من قلب القلوب دماءها	بالسّمير متّح الماء بالأشطان

(١٢٢) محمد خفاجي ، النقد العربي الحديث ومناهجه ، مطبعة الفجالة ، القاهرة (ط<sup>١</sup>) ١٩٧٥م ، ص ٤٤.

(١٢٣) انظر: ديوان العماد ، ص ٢٢٨ ، ٢٣٥.

(١٢٤) انظر: النقد العربي الحديث ومناهجه ، ص ٤٤ . وابن رشيق (الحسن ت ٤٥٦ هـ) العمدة في حسان الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، (ط<sup>١</sup>) ١٩٧٢م ، ج<sup>١</sup>/ ٢٥٤ ، وبيت المقدس ، ص ٣١١ - ٣١٥.

(١٢٥) ديوان العماد ، ص ٤١٢ . والخرصان: الدروع (لسان العرب: خرص).

وقوله في حطين مخاطباً صلاح الدين (١٢٦):

سَحَبْتُ عَلَى الْأَرْدَنِ رُدْنًا مِنَ الْقَنَا      رُدِينِيَّةً مُلْدَأً وَخَطِيئَةً مُلْسَا  
حَطَطْتُ عَلَى حِطِّينَ قَدَرُ مُلُوكِهِمْ      وَلَمْ تُبْقِ مِنْ أَجْنَاسٍ كُفْرِهِمْ جِنْسَا

والعماد حينما يتحدث عن المعركة يحرص على استخدام الألفاظ الموحية بالحركة. ولذا، فقد اتسمت صورته بالحركة من ناحية، وبالغربة والإثارة الممزوجة بالسخرية والتهكم من ناحية أخرى، وخاصة حينما كان يتحدث عن هزائم الفرنج أمام المسلمين، ويصور قادتهم وملوكهم الذين وقعوا في الأسر أو القتل (١٢٧):

ويستوحي العماد بعض صورته من موروته الديني، إذ كان يستعير بعض مظاهر العقيدة الإسلامية كالسجود مثلاً، لكي يصور لنا رؤوس الأعداء وهي تهوي أمام سيوف المسلمين. وذلك على نحو ما نرى في قوله في نور الدين زنكي (١٢٨):

غَدَا مُلُوكُ الرُّومِ فِي دَوْلَتِهِ      وَهُمْ عَلَى رُغْمِهِمْ عَبِيدُهَا  
لَمَّا أَبَتْ هَامَاتُهُمْ سَجُودَهَا      اللَّهُ أَضْحَى لِلظُّبَى سُجُودَهَا  
وفي قوله أيضاً (١٢٩):

شُمُوسُ ظُبَى تَغْدُو لَهَا الْهَامُ سُجْدًا      فَلِلَّ نَضْرَانِيَّةٍ تَتَمَجَّسُ!

وتأتي بيئة الشام الجميلة وما فيها من رياض ومروج خضراء يانعة، فتكون مصدراً آخر من مصادر العماد الشعرية التي استقى منها معظم صورته الفنية التي صورت جيش المسلمين وأدواته القتالية. ومن الأمثلة الواضحة على ذلك قوله (١٣٠):

وَكُتَيْبَةٌ مِثْلَ الرِّيَاضِ كَأَنَّمَا      رَايَاتُهَا مَنَشُورَةٌ أَزْهَارُ  
وَكَأَنَّمَا خَضِرُ الْبِيَارِقِ لِلْقَنَا      وَرَقٌّ وَهَامَاتُ الْعِدَاةِ ثِمَارُ  
وَكَمَائِمُ الْأَعْمَادِ عَنْ زَهْرِ الظُّبَى      فَتَقَتْ فَكُلُ صَقِيلَةٍ نُورُ

(١٢٦) المصدر نفسه، ص ٢٣٤.

(١٢٧) انظر: المصدر نفسه، ص ٢٢٩، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٤١٣، ٤١٤.

(١٢٨) المصدر نفسه، ص ١٤٥.

(١٢٩) المصدر نفسه، ص ٢٣٨.

(١٣٠) ديوان العماد، ص ١٦٤.

وقوله أيضاً (١٣١):

لله جيش بالمرؤج عرضته أسد العرين رجاله ورماحه  
ومن الحديد سوابغاً أبدانه ومن المضاء عزائماً أزواحه  
روض من الصفر البنود وحرها والبيض يزهي وزده وأقاحه

وكأنّي بالعماد حينما يربط بين الجيش الإسلامي والطبيعة في مثل هذه الصور الفنية الرائعة يريد أن يقول: إن الطبيعة وجيش المسلمين مصدر خير وعطاء.

وقد استمد العمد بعض صوره الفنية من موروته القديم، وخاصة حينما كان يستعير صورة الأسد والطيور الجوارح، لكي يشبه بها قائد المسلمين وجيشه. ومن ذلك قوله في أسد الدين شيركوه (١٣٢):

زارت بنو الأصفر البيض التي لقيت حمر المنايا بها مرفوعة الحجب  
وإنها نقد من خلفها أسد أرى سلامتها من أعجب العجب  
وقوله مخاطباً صلاح الدين (١٣٣):

تركت مصارع للمشركين بطون القشاعم فيها قبور  
تزاحم فرسانها الضاريات فتصدم فيها النصور النصور

وكثيراً ما كان العمد في شعره الحربي ينجح في رسم صوره الى التشخيص والتجسيم، فيقدم الأشياء الجامدة في صور حية تحمل الكثير من صفات الكائن الحي، وذلك لكي يعطي تصوراً أشمل لمعانيه ويزيدها وضوحاً. ومن ذلك قوله (١٣٤):

في مأزق لا يسمع الواغي به إلا أنين صوارم وصواهر  
وقوله (١٣٥):

(١٣١) المصدر نفسه، ص ١١١.

(١٣٢) المصدر نفسه، ص ٨٠.

(١٣٣) المصدر نفسه، ص ١٩٢.

(١٣٤) ديوان العمد، ص ٤٣٨.

(١٣٥) المصدر نفسه، ص ٤١٤.

وبَعَيْنِ دَوْلَتِكَ الَّذِي قَدَّمَتْهُ      فُقِئَتْ عُيُونُ الْكُفْرِ وَالْكَفْرَانِ

وقد يتفوق العماد في تصويره على المصور المبدع، وخاصة حينما كان يخلق بخياله الواسع، لكي يصور لنا السكون الذي كان يخيم على ساحة المعركة. وذلك على نحو ما نرى في قوله مصوراً مصير الفرنج إثر هزيمتهم بحطين<sup>(١٣٦)</sup>:

وطَارَتْ عَلَى نَارِ الْمَوَاضِي فَرَاشُهُمْ      صَلَاءُ فَزَادَتْ مِنْ حُمُودِهِمْ قَبَسَا  
وقد خَشَعَتْ أَصْوَاتُ أَبْطَالِهَا فَمَا      يَعِي السَّمْعُ إِلَّا مِنْ صَلِيلِ الطَّبِيِّ هَمْسَا

ومما تقدم، نرى أن العماد قد اتكأ في رسم صوره الشعرية على حواسه المختلفة، وخاصة البصرية والسمعية منها.

### ٣- مقدمة القصيدة:

أشرت فيما تقدم<sup>(١٣٧)</sup> إلى أن معظم ما وصل إلينا من شعر العماد الأصفهاني الذي صور المعارك والحروب الدائرة ما بين المسلمين والفرنج، قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بقصائد المديح التي رفعها إلى نور الدين زنكي، ثم إلى صلاح الدين الأيوبي وبعض أفراد أسرته الذين كانت لهم مشاركة في مواجهة الفرنج والتصدي لهم. ولذا فإن العماد كان يراوح في مطالع قصائده المدحجية وفقاً للظروف التي كانت تقال فيها. فمنها ما كان يستهله بمقدمات غزلية ذات صلة وثيقة بالموضوعات الأساسية التي يتحدث عنها. ومن ذلك قصيدته في نور الدين ومطلعها<sup>(١٣٨)</sup>:

هَلْ لِعَانِي الْهَوَى مِنْ الْأَسْرِ فَادٍ      أَوْ لَسَارِي لَيْلِ الصَّبَابَةِ هَادٍ؟

وقصيدته في مدح ناصر الدين محمد بن شيركوه ومطلعها<sup>(١٣٩)</sup>:

وَلَقَدْ أَلْفَتْ نِفَارَهَا وَهَوَيْتُهَا      إِذْ لَيْسَ يُنْكَرُ لِلطَّبَّاءِ نِفَارُ

(١٣٦) المصدر نفسه، ص ٢٣٥.

(١٣٧) انظر: ص ٧ من هذا البحث.

(١٣٨) ديوان العماد، ص ١٢٣.

(١٣٩) ديوان العماد، ص ١٦٣.

وقصيدته التي رفعها إلى صلاح الدين مهنا بفتح القدس، ومطلعها (١٤٠):

اسْتَوَحَشَ الْقَلْبُ مَذْغِبْتُمْ فَمَا أُنْسَا وَأَظْلَمَ الْيَوْمُ مَذْ بَتُّمَ فَمَا شِمْسَا

وقصيدته فيه أيضاً حينما فتحت القدس، ومطلعها (١٤١):

أَطِيبْ بِأَنْفَاسٍ تَطِيبُ لَكُمْ نَفْسَا وَتَغْنَضُ مِنْ ذِكْرَاكُمْ وَحَشِي أَنْسَا

والعماد في قصائده المديحية التي استهلها بمقدمات غزلية، يحرص على إقامة التلاؤم بين مقدماتها الغزلية والموضوع الرئيسي الذي يتحدث عنه (١٤٢):

وللعماد قصائد أخرى في المديح ابتعد فيها عن المقدمات الغزلية، ودخل في موضوعه الذي يتحدث عنه مباشرة، إذ كان يستهلها بمقدمات نابعة من موضوعه الحربي، فجاءت موحية بالحماسة والقوة، ومعبرة عن الحدث ومستمدة منه، ودالة على المعاني التي يعبر عنها، ومنها قصيدته التي مدح بها أسد الدين شيركوه وهنأ فيها بوزارة مصر، ومطلعها (١٤٣):

بِالْجِدِّ أَدْرَكْتَ مَا أَدْرَكَتَ لَا اللَّعْبِ كَمْ رَاحَةٍ جُنِيتَ مِنْ دَوْحَةِ التَّعَبِ

وقصيدته فيه أيضاً، ومطلعها (١٤٤):

بَلَّغْتَ بِالْجِدِّ مَا لَا يَبْلُغُ الْبَشَرُ وَنَلْتَ مَا عَجَزْتَ عَنْ نِيلِهِ الْقُدْرُ

وقصيدته التي مدح بها نور الدين زنكي وهنأ فيها بملك مصر، ومطلعها (١٤٥):

بِمُلْكٍ مَصْرَ أَهْنَى مَالِكَ الْأُمَمِ فَاسْعَدْ وَأَبْشِرْ بِنَصْرِ اللَّهِ عَنْ أُمَمِ

وقصيدته فيه أيضاً، ومطلعها (١٤٦):

عُقِدَتْ بِنَصْرِكَ رَايَةُ الْإِيمَانِ وَبَدَتْ لِعَضْرِكَ آيَةُ الْإِحْسَانِ

(١٤٠) المصدر نفسه، ص ٢٢٧.

(١٤١) المصدر نفسه، ص ٢٣٠.

(٢٤٢) وهذا ما ذهب إليه أيضاً محقق ديوان العماد. انظر: ص ٢٢، وعبدالجليل عبدالمهدي، بيت المقدس، ص ٢٣٩.

(١٤٣) ديوان العماد، ص ٧٩.

(١٤٤) المصدر نفسه، ص ١٦٩.

(١٤٥) المصدر نفسه، ص ٣٨٠.

(١٤٦) ديوان العماد، ص ٤١٠.

وذلك لأن طبيعة الموضوع الذي يتحدّث عنه في هذا النوع من القصائد لا تتناسب مع المقدمات الغزلية، خاصّة وأنّ العصر الذي عاش فيه العماد، كان عصر حروب ومعارك وفتوح، ولا مجال لديه وهذه الحال أن يتغزل بالمرأة ويتلهى بها. وفي هذا يقول معاصره ابن الأثير: ( . . . يجب على الشاعر إذا نظم قصيدة أن ينظر، فإذا كانت مديحاً صرفاً لا يختص بحادثة من الحوادث، فهو مخير بين أن يفتتحها بغزل أو لا يفتتحها بغزل، بل يرتجل المديح ارتجالاً. وأمّا إذا كانت القصيدة في حادثة من الحوادث كفتح معقل، أو هزيمة جيش، أو غير ذلك، فإنّه لا ينبغي أن يبدأ فيها بغزل، وإن فعل ذلك دلّ على ضعف قريحته وقصوره عن الغاية) (١٤٧):

وهذا أمر لا يخفى على شاعر ملتزم بقضايا أمته وعصره مثل العماد الأصفهاني الذي كان مندغماً بهوم أمته معبراً عن آمالها وتطلعاتها.

ومهما يكن من أمر، فإنّ العماد في معظم قصائده التي رفعها الى قادة المسلمين إبان الحرب الدائرة بين المسلمين والفرنج، كان - إلى حد كبير - يحافظ على اتزانها الفني ووحدة الموضوعية، وإن كان أحياناً يستهلها بمقدمة، ويتحدّث فيها عن القائد المسلم وجيشه، ويصور معاركه وانتصاراته، ويصف الفرنج وما حلّ بهم من هزائم، ثم يستحث على قتالهم، إلا أنّها كانت تدور حول محور أساسي واحد وهو تصوير البطولة الإسلامية والتغني بانتصاراتها، وكل ما يأتي في القصيدة مما له صلة بذلك المحور من قريب، أو من بعيد، كان يأتي لإبرازه وتوضيحه.

(١٤٧) ابن الأثير، المثل السائر، (ط٢) ١٩٦٢م، ج ٩٦/٣ - ٩٧. وانظر حول هذه الظاهرة أيضاً، عبد الجليل عبد المهيدي، بيت المقدس، ص ص ٢٣٦ - ٢٣٩.